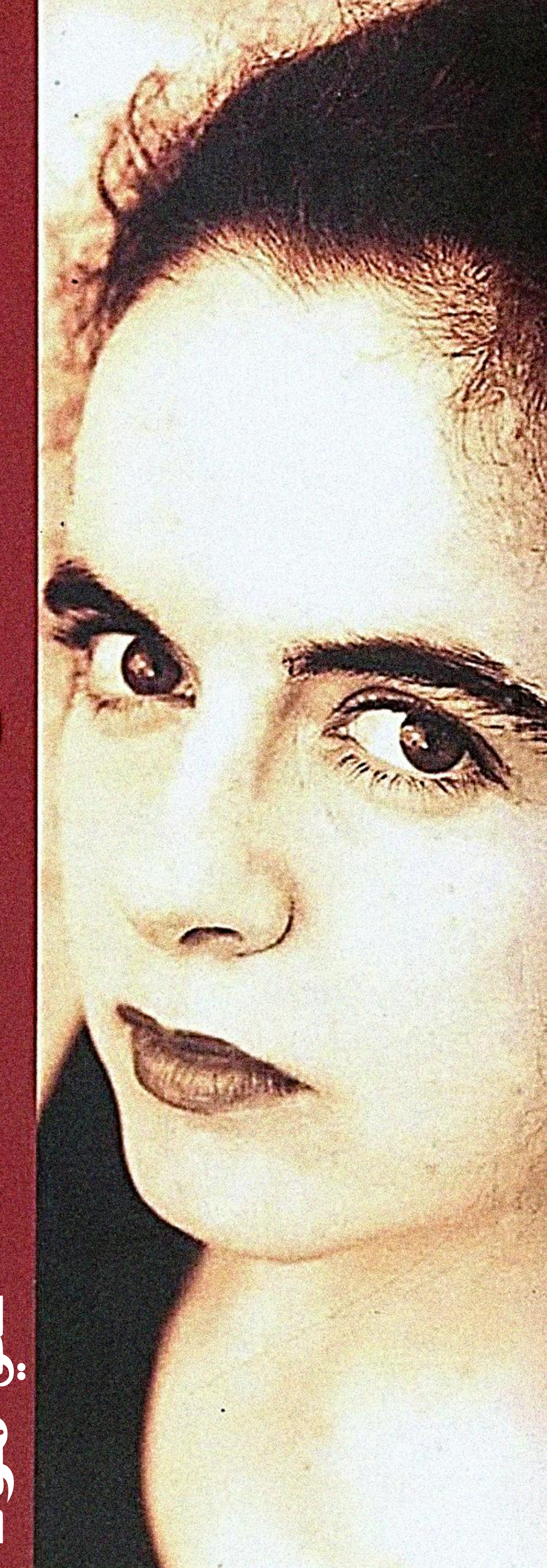
رواية

آميلي نوثومب

بيوغرافيا الجوع

ترجمة: بسّام حجّار

المركز الثقافي العربي



آميلي نوثومب

بيوغرافيا الجوع

رواية

ترجمة: بسّام حجّار

آميلي نوثومب

بيوغرافيا الجوع

Amélie Nothomb
Biographie de la faim

الكتاب

بيوغرافيا الجوع

تأليف

آميلي نوثومب

ترجمة

بسّام حجّار

الطبعة

الثانية، 2008

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-150-3

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

1

إنّها أرخبيل أوقياني يُدعى فانواتو، ما كان يُعرف في الماضي بـ«هيبريدِس الجديدة»، ولم يعرِف الجوعَ يوماً. نظراً لموقعها في عُرضِ البحر قُبالَة شواطئ كاليدونيا الجديدة وجزر فيدجي، حظيت فانواتو لعصورٍ بأكملها بمؤهِّلَين كليهما نادرٌ وقلّ ما يجتمعان: الوفرة والانعزال. والميّزة الأخيرة إذا كانت كأرخبيل تبدو للسّامع حَشْواً لا طائل تحته بالطبع. سوى أنّ بعضَ الجزر قد يكون مقصداً لكثيرين، إلاّ جزر هيبريدِس الجديدة التي تكاد لا تطأها قدمٌ غريبة.

إنّها حقيقة تاريخيّة غريبة: فلا أحد راودته الرغبة يوماً في الذهاب إلى فانواتو. حتّى أقلّ البقاع حظّاً وحظوةً في عالم الجغرافيا، كجزيرة «ديزولاسيون» مثلاً، لها قاصدوها: إذ يتضح أنّ لتخلّي الربّ عنها جانباً مثيراً يجذب إليها الزائرين. فمن شاء التباهي بميله إلى العزلة أو رامَ التشبّه بالشعراء الملعونين قد ينال المبتغى بقوله: «إني قادمٌ من جزيرة 'ديزولاسيون'.» كما للعائد من جزر الماركيز أن يُثير من حوله

انطباعاً بأنّه نصيرٌ للبيئة، وللعائد من الجزر البولينيزيّة أن يوحي بأعمال غوغان، وغير ذلك. إلاّ فانواتو فالعودة منها لا تثير أي ردّ فعل.

وقد يجعلُ الأمرَ أدعى لاستغرابنا كون الـ«هيبريدِس الجديدة» جزراً ساحرة. إذ نجد فيها عدّة الجَذْب الأوقيانية المعتادة الباعثة على الأحلام: أشجار النخيل، يُسر الحياة، وغير ذلك. ولو شئنا تحوير عبارة فيالات الذائعة لجاز لنا القول إنّها جزر غاية في الجزيريّة: فلِمَ يبطل سحر الطابع الجزيريّ، الذي يكتنف عادةً كلّ نتوء صخري بارزٍ وسط المياه، عندما يتعلق الأمر بجزيرة فاتي وأخواتها؟

كلّ شيء يؤكّد أنّ أرخبيل فانواتو لا يثير اهتمام أحد من الناس.

عدم الاكتراث هذا يفتنني.

أمامي خارطة اوقيانيا المثبتة في قاموس «لاروس» بطبعةٍ قديمة ترقى إلى عام 1975. في ذلك الوقت لم تكن جمهورية فانواتو قد قامت بعد: إذ كانت جزر «هيبريدس الجديدة» لا تزال خاضعة لحكم ثنائي بريطاني فرنسي.

الخارطة واضحة. فأوقيانيا مقسّمة بفعلِ هذه الظواهر العبثيّة الرائعة التي تُسمّى الحدود البحريّة: أمرٌ معقّد ودقيق كالرسم التكعيبي. ثمة جانب فيها متعلّق بنظرية المجموعات: هكذا نلاحظ تداخلاً بين حدود جزر «والّيس» وجزر «ساموا»

التي تبدو، بدورها، جزءاً من جزر «كوك» - كأنها حروف طلسميّة. كما نجد فيها تعقيدات سياسيّة، لا بل أزمات حادّة: فثمة نزاع بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على جزر «ليني»، المعروفة أيضاً تحت اسمٍ آخر، مذهل، هو جزر «سبوراد الاستوائية» (العشوائيات الآسيوية). وجزر «كارولين» التي تتدبّر جيداً أمرَ انتمائها، في وقتٍ معاً، لكل من أستراليا ونيوزيلندا وبريطانيا، متوّجةً هذا الشذوذ الفاضح بكونها، على الرغم من ذلك، تحت الوصاية الإنكليزية. وغير ذلك.

ينتابنا شعورٌ بأن أوقيانيا هي كائن غريب الأطوار في الأطلس. ووسط هذا القدر الهائل من الغرائب، تنعم فانواتو برتابة لافتة. ولا نجد عذراً لها في ذلك: كونها خضعت لسيطرة مشتركة من قبل بلدين عدوين تقليدياً كفرنسا وبريطانيا من دون أن تنجح يوماً في أن تكون سبباً لخلافٍ بسيط بينهما، لَهوَ أمرٌ محيّر يشي بالتقاعس. كما أن نيلها استقلالها من دون أن يعترض أحد، ما يدعو في ذاته للرثاءِ - ومن دون أن يأتي أحدٌ على ذكرِه!

منذ ذلك الحين وفانواتو مصابةٌ بما يشبه الكدر. ولا أدري ما إذا كانت «هيبريدِس الجديدة» عانت من الكَدَر نفسه. المؤكّد أن فانواتو غارقة في كَدَرِها. وعندي الأدلّة على ما أقول. لقد شاءت صُدَفُ الحياة أن أتلقّى ذات يوم كتالوغ الفنّ الأوقياني مهدىً إليّ (لماذا؟) من قبل مؤلّفه، وهو من أهلِ فانواتو. لهذا السيّد ذي الاسم المبهم الذي أعجز الآن عن

نسخ حروفه، مأخذ عليّ إذا صدق ظنّي مما فهمته من عباراته المقتضبة:

إلى آميلي نوثومب
بلى، أعلم، أنت لا تكترثين.
توقيع
11/ 7/ 2003

حملقتُ بعينين مذهولتين بكلمات رسالته. لِمَ يقرّر هذا الشخص من تلقائه، ومن دون معرفة سابقة، أنّ كتالوغه سيولّد عندي مثل هذه اللامبالاة الفظّة؟

غالبتُ جهلي المطبق وتصفّحتُ كتاب الصور. من المؤكّد أنني لا أفقه شيئاً مما أراه: ورأيي هو مما لا يُعتدّ به من بين الآراء قاطبة. غير أن هذا لا يعني أنني لا أملك رأياً في ما رأيت.

رأيتُ تعاويذ مذهلة من غينيا الجديدة، وأقمشة أنيقة مزركشة من جزر ساموا، ومراوح يد جميلة من جزر والّيس، ومزهرياتِ خشبٍ لافتةً من جزر سليمان، وغيرها. ولكن كلّما طالعني شيء يوحي بالضجر، كنت أعلمُ مسبقاً من دون اللجوء إلى الشرح المصاحب أنه مشط (أو قناع أو رسم) مصدره فانواتو، وهو نسخة طبق الأصل عن الأمشاط (أو الأقنعة أو الرسوم) التي نشاهدها عادةً في تسعة وتسعين في المئة من

متاحف العتقيات البلديّة في العالم أجمع، حيث نشقى ونتأفّف لاضطرارنا إلى التحديقِ إلى ما لا نهاية بأعقابٍ من الصوان أو قلادات من الأسنان التي ارتأى أسلافنا أنّ واجبهم يقضي بأن يملأوا بها كهوفهم. لطالما بدا لي أن عرض أشياء مماثلة هو ضرب من ضروب العبث وهو أشبه بحرصِ علماء آثارنا المستقبليين على عرض ملاعقنا البلاستيك وأطباقنا الكرتون.

بدا الأمر وكأنّ هذا السيّد الذي من فانواتو قد أيقن مسبقاً أن عاديّات بلده لن تثير إعجابي. والأسوأ من ذلك كلّه أنّه كان محقّاً في ظنّه. ولعلّ التفصيل الوحيد الذي لم يتوقّعه هو أنّ هذا الأمر سيثير انتباهي.

بعد التأمّل، لفتني تفصيل آخر في هذا الكتالوغ. إذ بدا لي أنّ العنصر الزخرفي المتكرّر في الفنّ الأوقياني البدائي هو الـ «يام»: أي الإنيام، صنفٌ من البطاطا الأوقيانية هي موضع تقديس فعلي في المعتقدات الغالبة هناك. والويل لمن يقرأ ما سبق على محمل السخريّة: فإنسان ما قبل التاريخ عندنا قد رسم هو أيضاً صنوف الأطعمة. وحتّى في أيامنا هذه ألا تزخر لوحات «الطبيعة الصامتة» بما يؤكل من نبات وفاكهة؟

وللمحتجّين منكم بالقول: «ولكن ليس البطاطا!» أجيب بأنّ الناس مشارب وأذواق، ولكل منّا أن يحتفي بما ملكت يداه. الثابت الوحيد في التصوير الفنّي للأطعمة يكمن في أن الرسّام (النحّات، المصوّر، وغيرهما) ينتقي من الأطعمة النادرة، وليس من مأكول كلّ يوم. هكذا أمكن البرهان على أنّ

إنسان «لاسكو» كان غذاؤه يقتصر على لحم الرَّنّة - ولا أثر لرسم رنّة على جدران الكاتدرائيّة الباذخة. فيا لعقوق النفسِ البشريةّ السرمديّ التي تؤثِر تمجيدَ صعوةَ الحطب والكركند على تمجيد الخبز الذي به تحيا.

فإذا كان أهل أوقانيا قد أكثروا، بالاختصار، من تصوير الإنيام فإنما ذلك لأنّ الإنيام هو وليمة أعيادهم لشدّة ما كان عسيراً عليهم زرع تلك العساقيل. ولو كانت البطاطا نادرة عندنا لكان أكل هريسة البطاطا أمارة حظوة.

مع ذلك، لم أجد في الكتالوغ ولو رسماً واحداً لثمرة يام، أو تصويراً، مهما كان، لصنف من صنوف الطعام مصدره فانواتو. المؤكّد إذاً أنّ هؤلاء ما كانوا يحلمون بالطعام. لماذا؟

لأنهم لم يجوعوا في يومٍ من الأيام.

ملاحظة أخرى: من بين جزر أوقيانيا قاطبةً، كانت غينيا الجديدة هي أكثرها تصويراً للإنيام وصنوف الطعام. كما كانت الجزيرة التي بدا لي أن إبداعها الفنّي هو الأغنى والأكثر حيويةً وابتكاراً - ليس فقط في رسومه «الغذائيّة»، بل أيضاً في بعض الأشياء التي لا تخلو من صنعة حقيقية وفذلكة. فكيف لا نخلص من ذلك إلى أنّ هؤلاء جاعوا، وأنّ هذا الجوع قد أيقظ مَلَكاتِهم؟

وقد شاء حُسنُ المصادفات أن ألتقي مؤخراً ثلاثة رجال

من أبناء فانواتو. كان مظهرهم رائعاً، إذ بدوا لي أشبه بثلاث شجرات باأوباب.

كانت قاماتهم السامقة بطول جذوعها الباسقة، وشعورهم الكثّة الباذخة، وكذلك، إذا جاز لي القول، نظرتهم الكابية في عيونٍ وسيعةٍ ناعسة. وليس في قولي هذا ما يُضيرُ، فالنعاسُ ليس نقيصة.

وجدتني أثناء مأدبة غداء بصحبة هؤلاء الثلاثة. إلى طاولة الطعام، كان المدعوون الآخرون يأكلون، أي أنّهم كانوا يُقبلون على الطعام بشهيّة بادية، وكانوا، تالياً، يلتهمونه لقمةً تلو الأخرى بوتيرة لا تكلّ.

أمّا أصحابي الثلاثة فكانوا بالكاد يمسّونه - لا كما يأنف من الطعام كلُّ ناسكٍ من أهل الزهد، بل كما يأنفه كلّ شبعانٍ لتوّه ومتخم. سأل أحد الحضور ما إذا كانت أطباقهم لا تناسب أذواقهم: فأجاب أحدهم إنّ الطعام لذيذ جداً.

- إذاً لِمَ لا تأكلون؟

- لأننا لسنا جائعين.

وكان جلياً أنه صادقٌ في ما يقول.

اقتنع الآخرون بما سمعوه من إجابة. أمّا أنا فقد كنتُ أبحث عن إجابة شافية.

- لِمَ لستم جائعين؟ سألت.

وكان من حقّ أبناء فانواتو أن يشعروا بالإهانة لاضطرارهم

إلى تبرير أنفسهم بهذا الشأن. غير أنّهم لم يشعروا بالإهانة. فالظاهر أنّ المتبرّع للنطق باسمهم ارتأى أن لا ضير في الإجابة عن سؤال مماثل: فتنحنح متباطئاً كمن تُقْعده التخمة عن بذل أي جهد، ونطق بقوله:

- عندنا في فانواتو، الطعام وفير. ولم نضطرّ يوماً إلى إنتاجه. نمد يدينا الاثنتين فتسقط في إحداهما جوزة هند، وفي الأخرى قِرطُ موز. نخوّض في مياه البحر لنبترد فتجتمع من حولنا وبمتناول أيدينا أنواع الأصداف اللذيذة وتوتياء البحر والسرطانات والأسماك ذات اللحوم الغنيّة. أمّا إذا جلنا قليلاً في أرجاء الغابة المكتظّة بالطيور نشعر بأنّ من واجبنا، وكرمى لهذه الطيور نفسها، أن نأخذ من أعشاشها ما يفيض من بَيْضِها، وأحياناً أن ندقّ عنق مجنّحٍ منها هي التي لا تكبّد نفسها عناء الفرار منّا. إناث الهَلوفِ ذوات ضروع مدرارة لأنها، هي أيضاً، تتغذّى بما يفيض عن حاجتها، وتتوسّل إلينا أن نستخرج من حليبها ما يثقل عليها: ولا تكفّ عن الزعيق بأعلى صوت إلاّ إذا انصعنا لطلبها.

سَكَت. وبعد برهة من الصمت، أردف قائلاً:

- إنّه لأمر فظيع.

وإذ ضاقَ، هو نفسه، بما استرسل في سردِه، خلص إلى القول:

- وعلى هذا المنوال، منذ الأزل، تجري الأمور في فانواتو.

عندئذ راح الرجال الثلاثة يتبادلون فيما بينهم نظرات تشوبها الغُمّةُ كأنّما يتشاركون من خلالها سرّ تلك الوفرة الدائمة التي يعجز اللسان عن وصفها، ثمّ لاذوا بصمتِ الحَرَج كأنهم يقولون لنا: «أنتم لا تدركون من حقيقةِ الأمر شيئاً.»

2

انتفاء الجوع مأساةٌ لم يتطرّق إليها أحد من قبل.

على غرار تلك الأمراض اليتيمة التي لا تحظى باهتمام الباحثين، لا يثير اللاجوع أي قدر من الفضول بشأنه: فيما عدا أهل فانواتو، لا أحد يصابُ به.

التغذية المفرطة التي نشهدها عندنا، في الغرب، لا تشبه حال فانواتو في شيء. إذ يكفي أن ينزل أحدنا إلى الشارع لكي يصادف أناساً يتضوّرون جوعاً. كما أننا لكي نكسب قوتنا علينا أن نعمل. الشهيّة عندنا متأصّلة.

ما من شهيّة إلى الطعام في فانواتو. يأكل الناس من قبيل المراعاة واللباقة، لكي لا تشعر الطبيعة، وهي هناك ربّة المنزل الوحيدة، بالإهانة. فهي التي تُعنى بكلّ شيء: السمط يُطبخ على حجرٍ ألهبته أشعة الشمس، لا أكثر ولا أقل. وطبعاً ينضج السمك لذيذ الطعم، ومن دون جهد يُبذل - «ليس الأمر لعبة»، قد يقول واحدنا شاكياً.

لِم يتكبّد المرء مشقّة ابتكار صنوف الحلوى عندما توفّر له الغابة فاكهةً لذيذة الطعم فاخرةً إذا قارنا بها صنوف الكعك التي

نبتدعها نحنُ لبدَت مبتذلةً وبلا طعم؟ لِمَ قد نشقى في إعداد أنواع الصلصة عندما يكون طَعمُ عصارة الصدفيّات ممزوجة بحليب جوز الهند الصلصة التي تجعل من كلّ مزيج نعدّه في مطابخنا أقرب إلى طعم المايونيز المنفّر؟ لا نحتاج إلى صنعةٍ لكي نفتح توتياء البحر التي التقطناها للتوّ ولكي نستلذّ بلحمها النيء. وهذه قمّة الذواقة. أمّا إذا انتقع بعض ثمار الغوافة في حفرةٍ ما حيث سقطَت عَرَضاً فإذ ذاك يحظى المرء، من دون أن يدري، بشرابٍ مُسكِر. أمرٌ بسيط.

لقد لَفَتني سلوك هؤلاء الثلاثة الوافدين من أهراء الطعام التي تُدعى فانواتو: كانوا ودودينَ، كيِّسين، مهذّبين. ولم تبدر منهم أي بادرة لؤم أو عداوة: كأننا إزاء أناس مسالمين للغاية. لكنّ ناظرهم يشعر بأنّ السأمَ مقيمٌ في نفوسِهم: كأنّهم لا يكترثون بأي شيء. حياتهم لطالما كانت نزهة متبطّلينَ، مستمرّة. يُعوِزها السعيُ.

3

ليس متعذّراً علينا أن نعيّن ما هو نقيض فانواتو: كلّ الأماكن الأخرى هي نقيض فانواتو. ذلك أن القاسم المشترك بين الشعوب قاطبةً هو أنها شهدت المجاعة في فترةٍ ما من تاريخها. المجاعة تولّد الروابط والصلات. وهي مادّة لحكايات تُروى.

زعيمة البطون الخاوية من دون منازع هي الصين. فماضيها سلسلة متّصلة من الكوارث الغذائية أسفرت عن أعداد لا تحصى من الموتى. وأوّل ما يبادر به صينيّ صينيّاً آخر هو سؤاله: «هل أكلت؟»

كان على الصينيين أن يعتادوا أكلَ ما لا يؤكَل، لذلك نجد هذا القدر من رهافة الذوق في فنّ الطبخ لديهم.

هل من حضارةٍ تفوق الحضارة الصينية تألقاً ومهارة؟ الصينيون اخترعوا كلّ شيء، وفكّروا في كلّ شيء، وفهموا كلّ شيء، وتجرّأوا على كلّ شيء. والانكباب على دراسة الصين هو انكباب على دراسة الذكاء مجسّداً.

بلى، لكنّهم غشّوا. كانوا يحقنون أنفسهم بمنشّطٍ غير مشروع: كانوا جائعين.

لسنا هنا في معرض ترتيب المكانات بين الشعوب. بل على العكس. نحن هنا بصدد البرهان على أن الجوع هو هويّتها الأسمى، وبصدد القول لكلّ بلدٍ يُضجرنا بالطابع الفريد المزعوم لشعبه، بأنّ كلّ أمّة هي مُعادَلَة متمحورة حول الجوع.

مفارقة: إذا كانت جزر «هيبريدِس الجديدة» لم تُثِر أية أطماع حقيقية لدى الغزاة الأجانب، فلأنّ هذا الأرخبيل لم يكن يعوزِه شيء.

وهذا أمرٌ مستهجَن بعض الشيء لأن التاريخ أثبت مراراً وتكراراً أن أكثر البلدان تعرّضاً للاستعمار كانت أغناها وأخصبها، إلخ... أجل، لكنّ الملاحظ هنا أن فانواتو ليست بلداً غنياً: فالثروة هي نتاج عمل، والعملُ هو مفهوم لا تعرفه فانواتو. أمّا الخصوبة فتفترض أنّ الناس قد زرعوا: والحال أنّ أحداً لم يزرع شيئاً في «هيبريدِس الجديدة».

إذاً، ما يجذب غزاة الأرض ليس ثروة البلدان في حدّ ذاتها، بل الجهد الذي بذله الناس فيها: أي نتاج الجوع.

للكائن البشريّ قاسمٌ مشتركٌ مع الأجناس الأخرى، هو أنه يبحث عمّا يشبهه: فحيث يرى صنيع الجوع، يسمع لغته الأمّ، ويشعر بأنه يحلّ في دياره.

أتخيّل لحظة وصول الغزاة إلى «هيبريدِس الجديدة»؛ فالمؤكّد ليس فقط أنهم لم يواجَهوا بأية مقاومة، بل لعل

الأهلين تصرّفوا حيالهم ولسان حالهم يقول: «جئتم في الوقت المناسب. ساعدونا في الإجهاز على هذه الوليمة، لقد أتخمنا.»

والباقي تكفّلت به الأعراف البشريّة: ما لا يُصان لا يستحقّ الجهد المبذول لأجله، فلن نشقى في سبيل هذه الجزر المأهولة بشعبٍ مكتفٍ لم يتكبّد حتّى عناء الدفاع عن نفسه أو تشييد أي شيء.

مسكينة «هيبريدِس الجديدة»! لا بدّ أن الحكم عليها بمثل هذه القسوة كان مثار حنقها. وكم كان مهيناً استعمارها من قبل أناسٍ أبدوا عدم رغبتهم في البقاء فيها!

4

لستُ بمنأى عن الموضوع الذي أتحدّث عنه. فما يفتنني في فانواتو هو أني أرى فيها التجسيد الجغرافي المثالي لنقيضي أنا. فالجوع هو أنا.

حلمُ جميع علماء الفيزياء هو التوصّل إلى تفسير الكون انطلاقاً من قانون واحد. يبدو أنّ الأمر بالغ الصعوبة. إذا افترضنا أنني كونٌ ما، فإنّ وجودي مستمدّ من هذه القوة الوحيدة: الجوع.

ليس القصد هنا أنني أحتكر لنفسي الجوع؛ فهذا أكثر الأمور شيوعاً بين الناس جميعاً. ومع ذلك أزعم أنني مبرّزة في هذا المجال. إذ أذكر، إلى أبعد ما تسعفني الذاكرة، أنني طالما تضوّرتُ جوعاً.

أنتمي إلى بيئة موسرة: ففي كنف عائلتي لم نشعر يوماً بأنّنا نحتاج إلى شيء. وهذا ما يحدو بي إلى فهم الجوع بوصفه خصوصيّة فرديّة: وليس امرأً مما يمكن تفسيره اجتماعياً.

كما ينبغي أن أوضح أمراً، وهو أنّ الجوعَ هنا لا يؤخذ

بمعناه الأشمل: فلو كان مجرّد جوعٍ إلى الطعام لكان التعامل معه أيسر مثالاً. ولكن هل هذا النوعَ من الجوع موجود حقاً: الجوع إلى الطعام؟ هل يوجد جوعٌ هو فقط جوع البطن وليس مؤشراً على جوعٍ أعمّ؟ فالجوع يعني في نظري تلك الحاجة الفظيعة التي تمسّ الكائن كلّه، ذاك الفراغ الآسِر، وذلك التوق لا إلى الامتلاء الطوباوي بل إلى تلك الحقيقة البسيطة: فحيث لا يوجد شيء، أتطلّع لأن يكون ثمة شيء.

لطالما صبوتُ إلى اكتشاف فانواتو ما، في داخلي. وكانت قراءتي، وأنا ما زلت في العشرين من عمري، لعبارة **كاتول** التي بها عبثاً يخاطب نفسه قائلاً: «كفّ عن أن تريد»، تبيّن لي حقيقة أنّ إخفاق شاعر مثله في محاولته الكفّ عن إرادة الأشياء دليلٌ مسبقٌ على إخفاقي المحتوم.

الجوع هو أن تريد. إنه رغبة أشمل من الرغبة. ليس الإرادة التي هي قوة. كما أنه ليس ضعفاً لأنّ الجوع لا يعرف الخنوع. فالجائع هو من يسعى.

إذا كان **كاتول** ينصح نفسه بالرضوخ، فإنما ذلك لأنه ليس راضخاً. في الجوع ثمّة ديناميكية تحول دون قبول المرء الجائع بحالِه. إنّه فعل إرادة ليس في طاقة أحد احتماله.

قد يقول أحدهم إنّ فعل الإرادة الذي يتحدّث عنه **كاتول**، والذي هو نقصٌ غرامي، وهوس باعثه غياب الحبيبة، ليس هو فعل الإرادة المقصود في ما نحن بصدده. ومع ذلك يشتبه

كلامي في أنّ ذاك الفعل مماثل لهذا. الجوع، الجوع الحقيقي، الذي ليس سُعاراً، الجوع الذي يشقّ الصدرَ ويفرغ النفسَ من جوهرها، هذا الجوع هو السلّم المفضي إلى الحبّ. ذلك أن كبار العشّاق تدرّجوا في مدرسة الجوع.

الكائنات التي تولَد شبعانة - وهي كثيرة - لن تعرف يوماً ذلك القلق الدائم، ذلك الانتظار المحيّر، تلك العصبيّة، ذاك الشقاء الذي يؤرّق ليلَ نهار. يبني الإنسان ذاته انطلاقاً مما خبره خلال الأشهر الأولى من حياته: إن لم يختبر الجوع، كان واحداً من أولئك المُصْطَفين غرباء الأطوار، أو من أولئك الملعونين غرباء الأطوار، الذين لن يبنوا وجودهم على محور النقص.

لعلّ هذه هي العبارة الأقرب إلى النعمة أو البلوى اللتين تحدث عنهما الآباء الجنسينيون: إذ لا أحد يدري لماذا يولد البعض جائعاً فيما يولد البعض الآخر متخماً. إنّه يانصيب.

ربحتُ الجائزة الكبرى. لا أدري إذا كان أمراً أحسَد عليه، غير أني لا أرتاب لحظة واحدة في أنني أمتلك كفاءات استثنائية في هذا المجال. وإذا كان نيتشه يتحدّث عن الإنسان الخارق، فأنا أجيز لنفسي الكلام على الجوع الخارق.

الإنسان الخارق، ليس أنا بالتأكيد؛ أمّا الجوع الخارق، فأنا هو وأكثر من أي شخص آخر.

لطالما امتلكتُ شهيةً ممتازة، وخاصّة إلى السكريّات.

طبعاً ينبغي لي الإقرار بأنني عرفتُ من كان يتفوّق عليّ في جوع البطن، وأولهم أبي. أمّا في مجال السكّريات فإني أتحدّى كلَّ منافسة.

وكما هو متوقّعٌ في مثل هذه الأحوال، أسفر هذا الجوع عن أسوأ أنواع العدوى: فمنذ نعومة أظفاري عانيت الشعورَ المؤلِمَ بأنني لا أحظى إلاّ بالحصّة الأقلّ. عندما أكتشف مثلاً أن لوح الشوكولاته قد اختفى من يدي، وأنّ اللعبة انتهت من دون متعة، أو أن الحكايات خُتِمَت كما لا أشتهي، أو أن بلبل الخشب كفَّ عن الدوران، أو أن صفحات الكتاب الذي يُخيّل إليّ أنّنا ما زلنا في بداياتها قد بلغت نقطة الختام، كان شيء ما فيّ يثور. ماذا! ضحكوا عليّ!

على من يضحكون؟ كأنّ لوح شوكولاته واحداً يكفي، أو مباراة أكسبها من دون عناء، أو حكاية تنتهي من دون مخاطر، أو دورات بلبلٍ خشبيّ تتوقّف على نحوٍ مفاجئ، أو كتاباً لا يتلاءم عدد صفحاته مع طول القصّة التي يسردها!

ما نفعُ الجهد الذي يُبذَلُ في تنظيم أحداثٍ مشهودة كتوزيع السكاكر، أو خوض السباقات، أو سرد الحكايات، أو اللعب بالدمى، وأخيراً وليس آخراً، قراءة الكتب، إذا كان الغرض منها أن نقيم على جوعنا إلى هذه الدرجة.

وأشدّد على «هذه الدرجة»: فأنا لا أدافع عن التخمة إطلاقاً. خيرٌ للنفسِ أن تبقي على شيء من رغباتها. ولكن هناك فرق كبير بين التخمة والضحك على الذقون.

لعلّ أصدقَ دليلٍ على ما سبق هو ما كنّا نجده في الحكايات الخرافية. حيث يبتكر مبدعُ حكايات خرافيّ مطالِعَ حكايات آسرةٍ من عَدَم: فحيث لا يوجد شيء كان ينشئ آليات بديعة وحبكات سرديّة تثير الفضول والمخيّلة. إذ يضع فيها حذاء السبعة فراسخ، واليقطينة المتحولة، والحيوانات ذات الأصوات المنشدة، ومفرداتٍ كالمراوح، وأثواباً بلون أشعّة القمر، وضفادع تحسب أنّها أمراء. وكلّ هذا من أجل ماذا؟ لكي نكتشف أنّ الضفدع كان حقاً أميراً وأنّه كان ينبغي إذاً الزواج منه والإنجاب منه ذريّةً صالحة.

على من يضحكون؟

مؤامرة والغرض الخفيّ منها هو أن يشعرونا بالحرمان. «كانوا» (من هم؟ لم أدرِ يوماً من هم) يسعون إلى خداعِ الجوع. فضيحة مجلجلة. ولكن للأسف غالباً ما كان يعقبُ ثورتي تلك شعورٌ بالخجل، عندما ألاحظ أنّ الأولاد الآخرين اكتفوا بذاك المقدار - لا بل أسوأ من ذلك، عندما كنت ألاحظ أنهم لا يدركون حتّى أين تكمن المشكلة.

خجل الطفولة النموذجي: عوضَ التفاخر إلى أقصى الحدود بالتطلّب الذي يبديه، يحيا الطفل هذا التطلّبَ كأنّه تفرّد مذنبٌ، ما دام المثالُ هو التشبّه بالأتراب لا التمايز عنهم.

5

بلى، تطلّب. إذ غالباً ما ينمّ التعارضُ الشائع بين النوعية والكميّة عن حماقةٍ عريقة. ذلك أنّ من يعاني جوعاً خارقاً لا تكون شهيّته كبيرة ومتزايدة التطلّب وحسب، بل تكون له شهيّات أكثر صعوبة. ثمة سلّم للقيم حيث الأكثر يولّد الأفضل: مشاهير العشّاق يعلمون ذلك، ويعلم ذلك أيضاً الفنّانون المهجوسون بفنّهم. وذروة الرهافة هي خير حليف للوفرة.

كلامي يستند إلى خبرة واسعة في هذا المجال. عندما كنت طفلة متضوّرة جوعاً إلى السكّر، لم أكفّ يوماً عن السعي وراء زادي منه: فالسعي وراء السكاكر كان بالنسبة لي أشبه بالسعي وراء الكأس المقدّسة. كانت أمي تعارض وتقمع هذا الشغف عندي ظنّاً منها أنها تنجح في خداعي إذ تعطيني بدل الشوكولاته قطعة جبنٍ كانت تقزّزني أو بيضة مسلوقة تشعرني بالمهانة أو تفاحاً بلا مذاقٍ أو طعم هو آخر ما قد تشتهيه نفسي.

ما كان لتلك المناورات والحِيَل أن تنطلي على نباهةِ جوعي، بل كانت تزيده سُعاراً. وفوزي بما لا أبتغيه يجعلني

أشدّ جوعاً. فأجدني إزاء موقفٍ غريبٍ أنا المتضوّرة جوعاً التي تُرغَمُ على تناول الطعام.

وحده الجوع الخارق يُفسِدُ جوعَ أيٍّ كان. ففي حالِ الفطرة، لا القَسْر، يدركُ الجوعُ الخارق جيّداً ما يبغي: يبغي الأفضل، اللذيذ، الفاخر، ويتكفّل باكتشافِه في كلّ جانبٍ من جوانب المتعة.

عندما كنت أشكو حرماني من السكاكر، كانت أمّي تقول: «سوف تعتادين الأمر.» خطأ. لم أعتدِ الأمر. وما إن بلغتُ السنّ التي تخوّلني أن أكون مستقلّةً غذائياً، قصرتُ طعامي على السكاكر. وما زلت إلى اليوم. هذا ما يلائمني تماماً. ولم أشعر من قبل بأنني أفضل حالاً مما أنا عليه اليوم. وما من وقتٍ أفضل من سواه لفعلِ الصواب.

«سكّره زائد»: تبدو لي العبارة مجرّدة من أي معنى على غرار قولك «جمالُه زائد» أو «عشقه زائد». لا وجود لأشياء جمالها زائد: هناك فقط مدركاتٌ حسيّة صادرة عن قدرٍ بائسٍ من الجوع إلى الجمال. كما أرجو المعذرة ممّن يجعلون الباروكي نقيضاً للكلاسيكي: فأولاء الذين لا يرون الوفرة المنبجسة من صلبِ معنى القِياس لا ينعمون إلاّ بمدركات بائسة.

– إني جائعة، كنت إذاً أقول لأمّي رافضةً أعطياتها الكابتة للشهوات.

- لا، أنت لستِ جائعة. لو كنتِ جائعة حقاً لأكلتِ ما أقدّمه لك، كانت تردّد على مسمعي المرّة تلو المرّة.

- إنّي جائعة! أقول بنبرة اعتراض.

- إنّه مرض حميدٌ، كانت دائماً تقول لكي تنهي النقاشَ بيننا.

عدم اكتراثها ذاك كان دائماً هو السبب في إحباطي. مرض. حميد. هراء!

فيما بعد اهتديت إلى أصلِ كلمة «مرض». فهي مشتقّة من العبارة: «عُسرُ القول»[1]. المريض هو من يتعذّر عليه قول شيء ما. فيتكفّل جسده بالعبارةِ عنهُ، بالإنابة، على صورة اعتلال أو مرض. كم هي مذهلة هذه الفكرة التي تفترض أننا إذا أفلحنا في القولِ امتنع عنّا المرض.

إذا كان الجوعُ مرضاً حميداً، فما هو القول الحميد الذي إذا نطقتُ به شفاني منه؟ ما سرّه الدفين؟ أي لغزٍ يتعيّن حلّه لكي أبرأ من حاجتي الملحّة إلى السكّر؟

في الثالثة أو الرابعة من عمري لم أكن بعدُ قادرةً على طرح مثل هذه الأسئلة على نفسي. ومع ذلك، في غفلةٍ منّي، كنتُ أتلمّس الإجابة - وأتحرّق شوقاً إليها، لأنني في تلك الفترة بدأتُ أسرد لنفسي قصصاً.

ما هي القصّة في نظر فتاة في الرابعة من عمرها؟ القصّة

---

(1) لَعِبٌ على عبارتي " maladie " (مرض) و " mal à dire " (عسرُ القول).

هي سياقٌ مُركّز لحياةٍ، لمشاعر جامحة. أميرة حبيسة برج تتعرّض للتعذيب. أولاد يهجرهم الأبوان فتذيقهم الحياة أشدّ أنواع البؤس إيلاماً. بطل يُحبى بنعمة التحليق في الفضاء. ضفادع تبتلعني وأنطنطُ في أحشائها.

عندما يأتي رامبو، الذي يُدينُ للطفولةِ ببعض عبقريّته، بشيء من التقزّز على ذكرِ الشعرِ «الباهتِ على نحوٍ مخيفٍ» الذي يكتبه معاصروه، فإنّما يفعل مدفوعاً بتطلّب الصبيّ اليافع الذي يصبو إلى ما هو قدير ومدوّخ وغير محتمَل ومثير للغثيان وغريب، لأنّه يرى أنّ ما يُعوِز رغبتنا، في آخر المطاف، هو «الموسيقى البارِعة».

محتوى القصص التي كنت أسردها لنفسي لم يكن مهمّاً في نظري، كان المهمّ هو الشكل الذي لم يُكتَب يوماً: وإن كان من غير الدقيق إطلاقاً أن أصفه بأنّه شفهيّ، ما دام ذاك الهمس المتردّد في رأسي لم يغدُ مجهوراً في يوم من الأيام. كما أنها لم تكن قصصاً ذهنيةً بحتة ما دام النَبْرُ يَكتسي فيها أهميّةً بالغةً - نبر بقوّة صفر ديسيبيل ليس سوى تردّداتِ أوتارٍ بكماء وإيقاعات جُمجُميّة خالِصة، لا يشبهها إلاّ صخب محطّات المترو المقفرة التي لا تعبرها القطارات. بمثلِ هذا الهدير المكتوم تحظى النفسُ بأغرب ثمالاتها.

الاضطراب كان هو الأسلوب. مضطرباً كان الأمير المستميت في اكتشاف كوامنَ الرعبِ في الأميرة، ومضطربين كانوا الأولاد الذين يختلسون قُوْتَهم من الطبيعة، مضطرباً كان

تحليق البطل العشوائي، ومضطرباً كان هضمُ الضفدعة التي أقمتُ في أحشائها. كان اضطراباً يجعلني في حالٍ غير طبيعيّة في قصصي الباطنية.

وعندما كنت أهتدي، بعد مشقّات البحث والتحرّي، إلى مخابئ السكاكر، من مارشمالّوز أو شخوص الغوما، كنت أسارع إلى الاختباء لائكةً الغنائمَ بدأبٍ وقوّة، ودماغي المخدَّر بِمُواقعة اللذّة يطلقُ احتكاكاتٍ كهربيّة لقوّة انتشائي التي تجاوز طاقةَ العدّاد على الاحتمال، وكنتُ أغوصُ إلى قاعِ الثمالةِ لكي أطفوَ بعدَ حينٍ على سطحِ نبعِها الحار.

6

لو لم يكن أبي أكثر الناس انشغالاً على وجه البسيطة، لكان قيّضَ لي أن أباغتَ تسلّله مِراراً لا تُحصى إلى المطبخِ، متيقّظاً، مقلّباً محتويات الخزائن ، سعياً وراء الممنوعات بالطبع، لأنّ الأكل بين الوجبات الثلاث كان محظراً عليه هو الأكول الشرِه الذي لا يرعوي. في المِرار القليلة التي أتيح لي فيها أن أباغِتَ غزواتَه تلك، كان يسارع إلى الفرار بما غَنِمه، مقدارَ قبضة من أطعمةٍ مختلفة كقطعة خبز أو حفنة فستق، أو أياً مما طاولته يَدُهُ المذنبة.

أبي هو شهيدٌ غذائيّ. شخصٌ حُقِنَ بالجوعِ عنوةً من قبل الآخرين، ثمّ تعرض لقمعٍ مستمرّ لَما حُقِنَ به عنوةً. في صغره كان طفلاً هزيل البنية، حسّاساً، نحيلاً، فأرغمَ على الأكلِ بألف وسيلة ابتزاز عاطفيّ حتّى رضخَ لتطلّب مبتزّيه (ومنهم جدّته، على وجه الخصوص) مُفْرطاً في الإخلاص له حتّى أكسبَ معدته أبعاداً شبه كونية.

إنّه رجلٌ تعرّض للخداع: فُرض عليه هوس الأكل، وعندما استقرّ في عاداته خصلةً، أخضِع للحِميةِ حتّى آخر

أيامه. لقد عانى أبي مثل هذا المصير العبثيّ: القَسْر وما يستتبعه.

يأكل بسرعةٍ مرعبة، ولا يلوك شيئاً مما يأكله، وبقَلَقٍ بادٍ كأنّه لا يستمتع بما يأكل. غالباً ما أعْجَبُ إذ يصفه الناسُ بأنّه رجلٌ مُقبلٌ على ملذّات الحياة. لعلّ سمنته البادية كانت هي الخادعة: فالحقيقة أنّه الحَصْرُ مجسّداً، وأنّه عاجزٌ عن الاستمتاع باللحظة الحاضرة.

منذ البداية قرّرت أمّي أنّي أبي. فحيث لاحَ شَبَهٌ رأته تطابقاً. وعندما كنت في الثالثة من عمري، كنت أستقبل زُمَرَ المدعوين إلى مائدة والديّ مؤكّدةً لهم بصوت ينمّ عن قنوط: «أنا باتريك». فيُذهَل المدعوون لقولي.

الحقيقة أنني كنت قد اعتدت إصرار أمّي، في معرض تقديمِ أولادها الثلاثة للضيوف، على اختتامِ حفل التشريفاتِ المذكور بقولِها: «أمّا هذه، فهي باتريك»، ما جعلني أستبق قولَها في كلّ سانحة. وهكذا كنتُ أرتدي الفساتين، وكان شعري طويلاً مجعداً، ومع ذلك كنتُ أدعى باتريك.

غَلَطُها كان يغضبني. أنا كنت أعلم جيّداً أنني لست باتريك. وذلك ليس فقط لأنني لستُ ممن يحملون لقب «السيّد فلان». وإذا كنتُ بالفعل أشبه أبي أكثر مما أشبه أمّي، فإنّ الفرق بينه وبيني يكمن في أمور جوهريّة.

على الرغم من كونه قنصلاً، كان أبي عبداً. أولاً، كان عبداً لذاتِه: إذ لَم يسبق لي أن عرفت شخصاً مثله على هذا

القدر من التطلّبِ في حقّ نفسِه، سواء من حيث العمل أو الجهد أو الإنتاج أو الالتزام بواجباته. وثانياً، كان عبداً لطريقته في إقباله على الطعام: جائع باستمرار، ينتظر حصّةً من الزاد بلهفةٍ موجعة ليست سُعاراً لكنّها أشبه بالسُّعار إذا ما قيسَ السعارُ بالسرعة الفائقة التي يُلتهمُ بها الطعام. وأخيراً، كان عبداً لفهمِه غير المفهوم للحياة، والذي ربّما كان غياباً تاماً لأي فهمٍ للحياة، غير أنّ هذا لم يحل دون كونه عبداً له.

إذا سلّمنا بأنّ أمّي لم تكن هي رئيسة أبي، فقد كانت مدبّرة عبوديّته الغذائيّة. كانت هي الممسكة بالسلطة الغذائية. ومثل هذا شائعٌ في الأسرِ إجمالاً. ومع ذلك، أشعر بأنّ هذه السلطة كان لها تأثيرها الأكبر في العلاقة بين والديّ. فكلاهما يقيم صلةً بالطعام تجاور الهَوَس - ولعلّ حالة أمّي هي الأصعب بين الحالتين.

أمّا أنا فكنت نقيضاً للعبدِ لأنني كنتُ الإله. سيّدة الكون وبخاصّة سيّدة المتعة، امتياز الامتيازات، التي أنصرفُ إلى تنظيم مواقيتها طوال ساعات النهار. كانت أمّي تقنّن حصّتي من السكّر، فلتقنّن السكّر: ذلك أن سوانح الاستمتاع لا تُحصى، ويكفي أن أفتعل سُنُوحَها.

لم يكن إصرار أمّي على اعتباري نسخةً من أبي أقلّ إثارةً لمشاعر الغضب في أعماقي. لكنّ أبي، إذ أغبطه اعتباري نسخةً منه، ارتضى المزاعم حقيقةً، وأعلن، هو أيضاً، أنني هو. كنتُ أستشيط غيظاً، في قرارتي فقط، وأضرب الأرضَ

بقدميّ متقافزةً حنقاً، في رأسي فقط، لعجزي عن التدليل على بطلان زعمهما.

كم وددتُ أن أُفهمهما من كنتُ حقاً، أو ما كنت مقتنعةً بأنني كنتُه حقاً. إذ كنتُ التدفّق، الكينونة؛ وكنت الغياب التام للاكينونة؛ وكنتُ النهرَ في أعلى مستويات فيضه، مانحة الوجود، والقدرة المُبتَهَلة.

كان مصدر قناعتي تلك الأسباب التي تطرّقت إليها في المبحث الذي أفردته لميتافيزيقا الأنابيب، وكان مصدرها أيضاً هو جوعي الخارق. إذ أدركت أنني المصابة الوحيدة به. أبي كان شرِهاً، وأمي كان هاجسها الغذاء، أمّا أخواي الأكبران فكانا طبيعيين شأن الناس الآخرين الذين نلتقيهم كلّ يوم. كنت أنا المالكة الوحيدة لهذا الكنز الذي سيغدو، وأنا في السادسة من عمري، مصدراً لبعض الحَرَج، لكنّه بدا في عينيّ، وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري، ما كان عليه فعلاً: علامة تفوّق، علامة اصطفاء.

لم يكن الجوع الخارق يعني في نظري إمكانَ الفوزِ بالمزيد من اللذّة، بل امتلاك مبدأ المتعة نفسِه، وهو اللامنتهى. وكنتُ خزّان ذلك التوق الذي لشدّته كان يجعل كلّ شيء بمتناول يدي.

7

كانت أمّي تعتقد أنّ من واجبها أن تناكفني بما أني أبي وبما أنّ أبي يستحقّ المناكفة. «لكي لا تصبحي مثل أبيك»، كانت تردّد قائلة. ولم يكن قولها هذا مستقيماً، مهما قلّبنا أوجه المنطق فيه، ما دمتُ، بحسبِها، غدوتُ باتريك وانتهى الأمر.

ثمّ إنّ أبي لم يكن شغوفاً بالسكّر على نحوٍ خاص. كما أنّه لم تبدُ عليه يوماً مزاعم الألوهة. غير أنّ أوجه الاختلاف البادية تلك لم تنبّه أمّي إلى كوني مختلفة جوهرياً عنه.

لو كان الله يأكل، لأكل سكّراً. ولم أرَ يوماً في الأضاحي، بشراً كانوا أم حيوانات، إلاّ ضرباً من ضروبِ المروق: دماء مهدورة لأجل كائنٍ يرى قمّةَ السعادة في نيله أكواماً من البونبون!

كان التفنُّن في هذا المجال محتوماً. ففي مملكة السكاكر منها ما هو أكثر أو أقلّ ميتافيزيقية. وقد أفضت بي أبحاثٌ مطوّلة إلى استنتاجٍ مفادُه أنّ الغذاء الإلهيّ هو الشوكولاته.

كنتُ لأستعرض البراهين العلميّة على صحّة ما أقول وأوّلها برهان التيوبرومين وهو مكوِّن لا نعثر عليه إلاّ في الشوكولاته، واشتقاق لفظه صارخٌ بوضوحِه. غير أنّ التطرّق إلى براهين كثيرة قد يؤخَذ على محمل التشكيك. فألوهة الشوكولاته تبدو لي سابقة على إثباتها.

ألا يكفي أن يضع المرء قطعة من الشوكولاته اللذيذة لا لكي يؤمن بالله وحسب، بل أيضاً لكي يشعر بجلال حضوره؟ الله ليس هو الشوكولاته، بل إنّه اللقاء بين الشوكولاته والحنك القادر على تذوّقه.

الله كان أنا في حالة المتعة أو إمكان الفوز بالمتعة: أي أنّه كان أنا طوال الوقت.

إذا كانت ألوهتي غير مُدرَكةٍ على نحوٍ واعٍ من قبل والديّ، فقد كنت أشعر أحياناً أنّهما في جانبٍ معتم من دماغهما يدركان هذه الحقيقة ويتقبّلانها. كنت أحظى بمكانةٍ خاصّة. لذلك عندما حان موعد دخولي إلى المدرسة لم يُلحِقاني بالمدرسة الأميركية التي يرتادها أخي وأختي، بل ألحقاني بـ«يوشيان»، روضة الأطفال اليابانية القائمة عند طرف الشائع.

ألفيتني إذاً في الـ تامبوبوغومي (صفّ الهندباء البرّية). وأعطوني الزيّ المدرسي: تنورة قصيرة كحليّة، وسترة كحليّة، وبيريه كحليّة وحقيبة ظهر صغيرة. وفي فصل الصيف كان هذا الزيّ يُستَبدل بوزرةٍ تغطّي الجسم كخيمة وبقبّعةٍ من القشّ

مروّسة: كنت أشعر بأنني مكسوة بأسقفٍ. منزلٌ من عدّة طبقات.

قد يبدو ذلك محبّباً، غير أنّه كان مقيتاً. منذ اليوم الأوّل شعرتُ بنفورٍ لا يوصف من اليوشيان. وكان التامبوبوغومي بمثابة الباحة الخلفيّة لثكنة عسكرية. لم يكن خوض الحرب مشكلةً في نظري، لكنّ السير بخطى الأوزّة الموقّعة بالصفير والانصياع لصياح الأونباشيّة المتنكّرين في زيّ مدرّسات، مهين لكرامتي ولا بدّ أنّه كان مهيناً للآخرين أيضاً.

كنت غير اليابانية الوحيدة في اليوشيان. ولا يعني ذلك بأية حال أنّ أترابي كانوا متكيّفينَ مع الوضع السائد هناك. فمن العار أن يتخيّل المرء أنّه يمكن، بذريعة الانتماء إلى هذا الشعب أو ذاك، التكيّف مع أشكال العبودية.

الحقيقة أنني أعتقد بأنّ الأطفال الآخرين شعروا بما شعرتُ به: كنّا نتظاهر بعكس ما نشعر به حقاً. وصور تلك الحقبة هي خير دليل: يراني الناسُ متبسّمة أنا وأترابي، أو يرونني أخيطُ في درس الخياطة، منكبّةً على عملي الذي كنت أحرص على إنجازه كيفما اتفق. والحال أنني أستذكر جيّداً ما كان يراودني من أفكار خلال المدّة التي قضيتها في التامبوبوغومي: مستاءة على الدوام، حانقة ومذعورة في وقتٍ معاً. كانت المدرّسات نقيض ما كانت عليه مربيّتي، نيشيو سان، وكنت أمقتهنّ. ولم تكن العذوبة البادية على وجوههنّ سوى خيانة إضافية.

تعاودني ذكرى حادثة. كانت إحدى الأونباشيّات تعشق سماعنا ونحن ننشد، مجتمعين، أغنية حماسية مكرورةً، مفصحةً عن بهجتها لكوننا تلاميذ الهندباء البريّة المنضبطين البشوشين. وكنتُ في الأثناء قد عقدتُ العزمَ على أنّ إنشاد تلك الأغنية أشبه بالذهاب إلى كانوسّا فأستغلّ صياح الجوقة لكي أتظاهر بالإنشاد على غرار تظاهري بالمحاباة المدرسيّة: شفتاي تتحرّكان بما يحاكي الكلامَ من دون أن يسهم أي وتر من أوتاري الصوتيّة في إخراجه نطقاً. وكنتُ فخورةً بتلك الحيلة التي طالما اعتبرتها شكلاً مُترَفاً من أشكال العصيان.

لا بدّ أنّ المدرّسة تنبّهت إلى الحيلة التي اعتمدتُها، إذ خاطبتنا ذات يوم قائلةً:

- سوف نعمد إلى تنويعٍ ما، في التمرين: على كلّ تلميذ أن يُنشِد بدورِهِ جملتين من نَشيد صفّ الهندباء ثمّ يدع التتمّة لجارِهِ، وهكذا دواليك حتّى النهاية.

لم أكن سريعة البديهة ما يكفي للتنبّه إلى حراجة الموقف آنذاك. فقرّرتُ أن أخرق القاعدة التي اعتمدتها وأن أنشد هذه المرّة بملء صوتي. ولكن شيئاً فشيئاً أدركت أنني أجهل تماماً كلمات النشيد: لقد رفض دماغي نشيد صفّ الهندباء بحيث إنّه لم يحفظ منه كلمة واحدة. وعندما كنت أتظاهر بنطق الكلمات لم تكن شفتاي تقلّدان الألفاظ كما ينبغي، بل كانتا تتحرّكان كيفما اتفق تحت ستار بكمهما العشوائي.

في الأثناء كانت الأدوار تتعاقب من دون توقّف، كأدوار الدومينو. وكان الأمر الوحيد الذي قد ينقذني مما أنا فيه، إلى جانبِ زلزال مفاجئ، هو وقوع المدرّسة على مُدَّعٍ آخر. ولبثتُ حابسةً أنفاسي.

لم يسعفني الحظّ بوجود مُدَّعٍ آخر، فوقعت الواقعة: فتحت فمي ولم يخرج منه صوت. فإذا بنشيد صفّ الهندباء الذي ردّدته الشفاه متتالي العبارات بإيقاعِه المنتظم، يسقط في غورِ صموتٍ يحمل اسمي. رمقتني الأعينُ مجتمعةً واستدارت الرؤوس نحوي، وفي طليعتها نظرة المدرِّسة ورأسها، تظاهرت بأنها لا ترى في الأمر إلاّ غفلةً عارِضة وراحت تهمس لي بالكلمة الأولى من اللازمةِ التي كان إنشادها من نصيبي أنا.

عبثاً. كنت مشلولة تماماً. لم أستطع حتّى أن أردّد الكلمة من بعدها. وانقبضت أحشائي يعتصرها الغثيان. ألحّت عليّ، عبثاً. أسعفتني بكلمةٍ أخرى ولكن عبثاً. سألتني إذا كنت أعاني من ألم في الحلق، فلم أحِر جواباً.

بلغ الموقف ذروته حين سألتني إذا كنتُ أفهم ما تقول. ملمّحةً بذلك إلى أنني لو كنت يابانية لما واجهتُ تلك المشكلة - أي أنني لو كنت أتكلّم لغتها لأنشدتُ كما أنشد الآخرون بسهولة.

الحالُ أنني كنتُ أجيد اليابانية. والمشكلة أنني في تلك اللحظة كنت عاجزاً عن إثبات ذلك: إذ فقدت صوتي. حتّى هذا لم أكن قادرة على نطقه. ولمحتُ في أعين صفّ الهندباء

ذلك الأمر المرعب: «كيف لم نلاحظ من قبل أنها ليست يابانية؟»

انتهت الحادثة بذلك التساهل الجائر الذي أبدته المدرّسة حيال الطفلة الأجنبية التي حتماً لا تمتلك المهارات التي يمتلكها أترابها المحليون من صفّ الهندباء. فلا بدّ أن تكون الهندباء البلجيكيّة صنفاً من الهندباء أقلّ جودة. وتولّى الصبيُّ الذي يقف بجانبي إنشاد ما عجزتُ أنا عن إنشاده.

8

في البيت ما كنت أجرؤ على المجاهرة بما أكنّه من كراهيةٍ لليوشيان. لو فعلتُ لألحقوني بالمدرسة الأميركيّة وجرّدوني بذلك من السمة الأبرز لتفرّدي. إلى ذلك لاحظتُ أنني لا أفقه شيئاً مما يقوله أخي وأختي عندما يتحدّثان بالإنكليزيّة. ملاحظة أشبه بالفضيحة الفكريّة: وجود لغة لا أفهمها.

هناك إذاً صنفٌ من صنوف الكلام مستغلقٌ لا أفقه منه شيئاً. وعِوَض التلهّي بالقولِ، في قرارة نفسي، إنني قادرة، وبأيسر السبُل، على استكشاف تلك البقاع اللغوية الجديدة، رميتُهُ بالحُرْمِ جزاء مسّه بكمال الألوهة: بأي حقّ تستغلق عليّ هذه الكلماتِ؟ لن أحطّ يوماً من قدري سعياً وراء لغزها. هي التي ينبغي أن ترقى إليّ، وأن تحظى برفعةِ اختراق جدار رأسي وسَدِّ أسناني.

فيما يعنيني أنا، لم اكن أتكلّم سوى لغة واحدة: الفرنكويابانية. ومن وجدَ في هذه اللفظة إدغاماً للغتين مختلفتين، كان مخطئاً في ظنّه، سطحياً في إدراكه، إذ تستوقفه تفاصيل تافهة من قبيل معجم المفردات أو تركيب الكلام. إذ

لا يُعقَل أنّ ترهات من هذا القبيل قد تحجب عن أفهامهم لا القواسم المشتركة كلاتينيّة التناغمات أو دقّة قواعد النحو وحسب، بل أيضاً، لا بل خاصّة، تلك القرابة الميتافيزيقيّة التي تجمع بينهما من فوق: أي المُمْتع.

كيف للمرء ألاّ يشعر بجوعٍ إلى الفرنكويابانية؟ فمفرداتها ذات المقاطع اللفظيّة غير المتصلة، وذات الرنّة الواضحة، كانت أشبه بأصابع السوشي، بحبّات الملبّس، بألواح الشوكولاته الطريّة التي تُقطَع مربّعاتها بيسر؛ أشبه بقطع الكعك المصاحبِ لشاي الأعياد، المكسوّة، كلّ منها، بغلافٍ يُبيحُ للمستمتع أن يعرّيها وئيداً مُستَمهلاً لذّاتها الموعودة.

لم أكن جائعةً إلى الإنكليزيّة، تلك اللغة المطبوخة المهلهلة، هريسة اللثغات، العلكة الممضوغة المتنقّلةً من فمٍ إلى فم. اللغة الأنكلوأميركية تجهل النيء، المشوي، المقلي، المطبوخ على البخار: لا تعرف إلاّ المسلوق. يكاد اللفظُ لا يكون تاماً فيها، كما يزدرد أناسٌ منهوكون طعامَ الوجبَةِ صامتين. عصيدة غير متمدّنة.

كان أخي وأختي يعشقان المدرسة الأميركية، وكان كلّ شيء فيها يدفعني إلى الظنّ بأنني إذا التحقت بها لا بدّ أن أنعم فيها بالحريّة والطمأنينة. ومع ذلك كنت أفضّل الاستمرار بأداء خدمتي العسكريّة في كنف اللغّة المُلذّة الممتعة لا أن ألهو في كنف اللغّة المسلوقة.

لم يمضِ وقت طويل حتّى اهتديتُ إلى حَلّ: الهروب من اليوشيان.

الوسيلة غاية في البساطة: أنتظر فسحة الساعة العاشرة لكي أتظاهر بقضاء حاجة ملحّة، فأدخل المراحيض وأقفل الباب ورائي، ثمّ أقف على جرن المرحاض وأفتح النافذة. كانت أكثر اللحظات إثارة تلك التي أقفز فيها في الفضاء. وعندما تمسّ قدمايَ الأرض، تستبدّ بي حماسة البطولة، وأطلق ساقيّ للريح، راكضةً باتجاه المدخل المخصّص للعاملين.

تبدأ ثمالة مغامرتي الحقّة عندما أخرج إلى الشارع. لا يختلف العالم من حولي عمّا أشهده كلّ يوم أثناء النزهة المدرسيّة: فلا يعدو كونه قرية يابانية على سفح جبلٍ في مطلع السبعينات. غير أنّ فتنة الهروب لا تبقي المكانَ كما ألفته، ناحيةً من نواحي القرية التي أقطنها، بل تجعله فَتْحاً. أرضاً غريبة ضاجةً بثمالة عصياني.

ما كنتُ أكتشفه عندئذٍ يُدعى الحريّة بأشدّ معانيها حسيّة. إذ لا أعود مقيّدةً بصفوفِ نزلاء الروضة، أترابي، أو خاضعةً للوصاية العذبة التي تفرضها عليّ مربيّتي: وكنتُ أعجز فعلاً عن الإقرار في سرّي أنني بتّ قادرة على التصرّف كما يحلو لي، أن أستلقي وسط الطريق، أن أرتمي في المجاري، أن أسير على حواف الجدران العالية التي تحجب البيوت عن الأنظار، أن أتسلّق المرتفع حتّى البحيرة الصغيرة الخضراء - كلّ هذه الأفعال التي لا تعتبر استثنائية في حدّ ذاتها، كانت

تستمدّ من حريّتي فتنةً تحبس الأنفاس.

أغلب الأحيان كنتُ لا أفعل شيئاً. أجلس على حافة الزقاق مُراقبة في الأنحاء تحوّلَ الكون الذي أعادت إليه مأثرتي ذلك الوجه الخرافي لماضيه الأسطوري. وكانت محطّة شوكوغاوا تغدو، هي أيضاً، بمثل روعة قصر هيمجي الأبيض، والسكّة الحديد، التي هي الفضيلة اليابانية الأكثر شيوعاً، تغدو مسلكاً لتنيّن الضواحي، والقناةُ نهراً صاخباً يخشى الفرسان اجتيازه، فيما الجبال تزداد انحداراً فتغدو منيعةً، وكلّما ازداد المنظر وعورةً ازداد جمالاً.

كانت تلك الروعة المدوّخةُ تثقِلُ رأسي، وتحملني ساقاي إلى منزلي لكي تختمر، بالنومِ، ملحمتي.

- هل عدتِ الآن؟ تسألَ نيشيو سان مدارية دهشتها.

- أجل. الشيء انتهى باكراً هذا اليوم.

«الشيء» راح ينتهي باكراً كلّ يوم، وعلى نحوٍ مريب. كانت نيشيو سان تكنّ لي احتراماً كبيراً ما حال دون تحرّيها الأمرَ أو الإلحاح في السؤال. ولكن ذات يوم، عرّجت إحدى الأونباشيّات علينا مستفسرةً عن تكرار اختفاءاتي المفاجئة.

ثارت ثائرة الجميع. فتظاهرت ببراءة السذّج.

- كنت أعتقد أن الشيء ينتهي عند العاشرة صباحاً.

- إذاً كفّي عن هذا الاعتقاد.

كان لا بدّ لي ان أبقى هندباءَ طوال أربع ساعاتٍ في اليوم.

9

لحسن حظّي أنّ فترة ما بعد الظهر بقيت متاحة لي بأكملها. كنت جائعةً إلى البطالة. فبقدر ما أمقت شعوري بأنني مرتهنة لضوابط اليوشان وصفّارات الأونباشيّات، كنتُ أعشق أن يتركني الجميع لحالي. فالسير وراء راية المدرّسة لم يكن بالتأكيد مما يستهوي قلبي؛ أمّا اللهو في الحديقة بقوسي ونشّابتي فهو من الأمور التي تلائمُ طبعي وطبيعتي.

كانت هناك أنشطة رائعة أخرى، من قَبيل إفراغ جرن الغسّالة بصحبةِ نيشيو سان ولَحْس البياضات التي تنشرها لكي تجفّ - إذ اعتدتُ أن أعضعض الشراشف النظيفة مريّلةً لكي أستمتع بطعمِ مسحوق الغسيل الطيّب في فمي.

ولفرطِ ما كنتُ أبدي لذّةً في لحس الغسيل جاءت هديّة عيد ميلادي الرابع عبارة عن غسّالةٍ صغيرة تعمل بالبطاريّة. كنت أملأها بالماء وأضيف إليه ملعقةً من مسحوق الغسيل ثمّ أضع فيها منديلي. بعد ذلك أغلق باب الغسّالة وأضغطُ زرّاً وأراقب دورانَ محتواها. وعندما يتوقّف جرنها الصغير عن الدوران أفتح بابها مجدّداً وأفرغها من محتواها.

بعد ذلك لا أنشر المنديل لكي ينشف بل أضعه في فمي وألوكه لبعض الوقت إلى أن يزول عنه طعم الصابون. وعندئذ يصبح المنديل بحاجة إلى الغسلِ مجدداً لأنّه تشبّعَ من ريقي.

كنتُ جائعةً إلى نيشيو سان، وإلى شقيقتي، وإلى أمي: أحتاجُ إلى ضمّهتنّ، إلى احتضانهنّ إياي بقوّة؛ أحتاجُ إلى نظراتهنّ إليّ.

كنت جائعةً إلى نظرة أبي، لا إلى ضمّته. ذلك أن صلتي به كانت عقليّة.

لم أكن جائعةً إلى شقيقي، ولا إلى الأولاد الآخرين. ليس لأنّ لي مأخذاً عليهم؛ بل لأنّهم كانوا لا يثيرون فيَّ أيّما شهيّة.

كان جوعي إلى البشر يجد إذاً من يلبّيه تماماً: إذ كانت آلهات بانتيوني الخاص لا يقابلنني إلاّ بما أصبو إليه من الحبّ، كما كان أبي لا يحرمني من نظرات عينيه الحانية، وما تبقّى من البشريّة لا يعني لي الشيء الكثير.

إذا ما توسّلت وتملّقتُ نيشيو سان حظيتُ بكميّة البونبون التي أشتهي، وبمظّلات الشوكولاته المنمنمة، أو إذا حدثت المعجزة فقد أحظى منها أحياناً ببعض «الأوميشو»: فالكحول هي قمّةُ السكَّر، وهي برهان ألوهيّته، والمرتبة الأسمى من حياته.

كان شراب البرقوق المُسكِر شراباً سُكَّرياً مدوِّخاً: ليس في العالم ما يضاهيه.

لم تكن نيشيو سان لتقبل في معظم الأحيان أن تمدّني ببعض الأوميشو.

- هذا الشراب لا يُعطى للأطفال.

- لماذا؟

- لأنّه مُسكِر. إنّه للبالغين فقط.

منطق غريب حقاً. كنتُ أعرف السُكْرَ جيّداً: وكنت أعشقه. فلِمَ يجعل حكراً على البالغين؟

المحرّمات لم تكن صارِمة في يومٍ من الأيام: كان يكفي أن نلتفّ عليها، أن نناور بشأنها. هكذا رحتُ أحيا شغفي بالكحول خلسةً كما حييتُ شغفي بالسكَّر.

كانت المناسبات الاجتماعية مهنة والديّ. وكان منزلنا مسرحاً لحفلات الكوكتيل المستمرّة. طبعاً لم يكن حضوري مستحبّاً أثناءها، ولكن لا مانعَ من التعريج على الحفلِ إذا شئتُ ذلك فأقدّم نفسي للضيوف قائلة: «أنا باتريك.» ما يثير دهشتهم وحبورهم قبل أن ينصرفوا عنّي. فأنتهز انشغال الجميع عنّي للاقتراب من البار.

لم يكن أحدٌ من الحضور يتنبّه إلى اختلاسي كؤوس الشمبانيا نصف الممتلئة المهملة هناك. وسرعان ما غدا الشَّرابُ الذهبيّ الرونق ذو الفقّاعات أفضلَ صديق لي: تلك

الجرعات المتلألئة، وطعمُ الوخزِ في الحلقِ، وذاك النحو في استعجال السُكْر بخفّةِ الغفلة؛ ذروة المبتغى. الأدوار كانت مرسومة بدقّة: يغادر المدعوون، فأتجرّعُ ثمالات الكؤوس على عجل.

متعتعةً كنتُ أطوفُ في أرجاء الحديقة راقصةً. غير أنّ الدوار في رأسي لا يُضاهي دوران السماء. أرى الكونَ في دورانه المرئيّ المحسوس فأصرخ منتشيةً بأعلى صوتي.

أحياناً كنتُ أجد نفسي في اليوشيان ولم أصحُ بعدُ تماماً من سكري. فإذا بمشية الهندباء البلجيكيّة أقلّ ثباتاً من مشية أترابها، وخطوها المتعثّر يثير الفضول. وإذ تخضعني المشرفة لاختبارٍ صحّي تخلصُ إلى كوني مصابة باضطراب في نبض القلب ما يحرمني الأهليّة لمزاولة بعض المهن الرفيعة. ولم يشكّ أحدٌ في أن إدماني الكحول هو سبب علّتي.

أرجو ألاّ يُفهَم كلامي بأنّه مديحٌ لإدمان الكحول في الصغر، ولكن ينبغي لي أن أقول إنّه لم يسبّب لي مشكلةً من أي نوع. كانت طفولتي تتكيّف على أحسن وجهٍ مع أهوائي. لم أكن طفلة ضعيفة؛ وكان جوعي الخارقُ يُصلِّبُ عودي النحيل.

10

كنتُ مِثالاً للجسم غير المتناسق. ودليلي على ذلك صورٌ التقطت لي على شاطئ البحر: رأس كبيرٌ مستوٍ على كتفينِ واهيتين، ذراعان طويلتان جداً، وجذعٌ أكبر مما ينبغي، وساقان قصيرتان، هزيلتان تكاد ركبتاهما أن تتماسا، صدرٌ مقعَّر، بطن منفوخ بارزٌ إلى الأمام كأنّ التواءً مأسوياً أصاب عمودي الفقري، مثالٌ في انعدام التناسق - كأنّني على غير سويّة البشر.

وكنتُ لا أبالي. فإذا قالت نيشيو سان إنني آية في الجمال، أغبطني قولُها واكتفيتُ بحرفِه.

كان في منزلنا من مقادير الحُسنِ البشري ما يكفي وما يفيض عن حاجتي إليه، متمثّلاً بمظهر أمّي وأختي. كانت أمّي روعةً ذائعة الصيت، ديانةً منزلة لكي تستنير بها الحشود. أنظر إليها مفتونةً كأنني أقفُ أمام منحوتة، ومع ذلك فإنني وجدتُ كفايتي من الجمال في طلعةِ جولييت، أختي، التي كنتُ أقرب إليها. كانت تكبرني سنتين ونصف السنة؛ رأس جميل منمنم

على جسمٍ رقيق، أهيف، وشعر حوريّة، وقسماتُ وجه آية في العذوبة؛ كانت هي مثال الفتاة الصغيرة الفتّاكة الحُسْن.

عَبُّ الجمال لا يفسده: كنتُ أتملّى وجه أمّي لساعاتٍ، كما كان باستطاعتي أن ألتهم أختي بعينيّ من دون أن أنقص جمالها مقدار ذرّةً. كذلك متعة تملّي الجبال، أو الغابات، أو السماء والأرض.

11

الجوع الخارق ينطوي على الظمأ الخارق. إذ سرعان ما اكتشفت فيّ إحدى الميّزات الرائعة: إدماني شرب الماء.

لم يكن ميلي إلى عشق الكحول حائلاً دون توقيري الماء. فالماء يلبّي ظمأً مختلفاً عن ظمأ الكحول؛ فإذا كانت الأخيرة تلبّي حاجتي إلى ما يُحرِّق، إلى الحرب، إلى الرقص، إلى الأحاسيس المتوقّدة، فإنّ الماء كان، من جهته، يهمس بوعودٍ مجنونةٍ في أذنِ الصحراء الدهريّة المقيمة في حلقي. فلو جاوزتُ سطحَ قرارتي وغصتُ قليلاً في غمارها لوجدتُ بقاعاً من القفرِ المذهلِ، وحقولاً في انتظار «نيل» الفيضانات منذ عصور. ولعلّ اكتشاف هذا الضحلَ في أعماقي هو ما حباني بذاك الظمأ المستديم إلى الماء.

في نصوص الزهّاد ترداد لعبارات الظمأ الذي لا يَرتوي: وتردادها مدعاةُ ضيقٍ لأنّ الظمأ فيها لا يعدو كونه مجازاً لغوياً. فالحقيقة أن الزاهد الكبير كان ينهلُ ملء راحتيه بضع جرعات من النبع أو كلام الله، وينتهي الأمر.

تعلّمتُ ظمأً لا مجازَ فيه: فإذا ألمّ بي مرضُ الإقبال على شرب الماء، استطعتُ أن أعبّ الماء حتّى ختام الدهور. من نبع المعابد، حيث الماء المتجدّد أبداً هو الأصفى، كنت أملأ مغرفةَ الخشب تباعاً وأعبّ المعجزة المتدفّقةَ رقراقةً ألف ألف مرّة. الحدّ الوحيد كان يكمن في طاقتي على الاستيعاب وهي طاقةٌ هائلة: فلا أحد يتخيّل ما قد تتسع له تلك الجِرار.

كان رائعاً ما كان يقوله الماء لي: «إنْ شئتِ، أمكنكِ شرب كلّ شيء. لن تُمنَع عنكِ أية جرعةٍ مني. وبما أنّك تحبينني بهذا المقدار، أهبكِ نعمةً هي نعمة أن تتوقي إليّ على الدوام. على الضدّ من بؤساء القومِ أولاء الذين يرتوي عطشهم كلّما شربوا، أنتِ كلّما شربتِ مني ازداد عطشكِ إليّ، وازدادت رغبتك في الارتواء. لقد شاء حسنُ طالعك أن أكون لك الخير الأعظم، وعلى الأخص أن أكون ذلك الخير الأعظم الذي يبذل لك أعظم السخاء. لا تجزعي، لن يأتيك أحدٌ ليأمرك بالكفّ عن الشرب، لكِ أن تواصلي شربَك، فأنا سلطانُك، ومكتوبٌ أن أُمنَحَ لكِ من دون قيد أو شرط، لكِ وحدك أنتِ يا مَن تُبْدين من وافِر الظمأ ما يُغبطني.»

كان للماء طعم حجارة الينبوع: كان لذيذاً بحيث إنني كنتُ لأطلق صرخةً مدويّة لو لم يكن فمي ملآناً به على الدوام. لسعُهُ الباردُ يُرعِشُ حلقي، ويملأ عينيّ بالدموع.

المشكلة أنّ حجّاجاً كانوا غالباً ما يمرّون بالمكان، وكان عليّ أن أتخلّى لهم عن المغرفة الوحيدة. ولم يكن استيائي

ناجماً فقط عن العطالة الطارئة، بل أيضاً لاضطراري إلى العطالة من أجل لاشيء تقريباً. كان كلّ واحد منهم يملأ من النافورة الملعقةَ الضخمة، ليشرب جرعةً منها ثمّ يدلق الباقي في الجرن. لكنّ الأمر يستحقّ ولو اقتصر على جرعةٍ واحدة. وإذا بالقمّة يبلغها من يهدرون الماء على الأرض. فيا للمهانة.

لم يكن المرور بالنبعِ في نظرهم سوى شعيرة تطهّر يقصدون في ختامها معبد الـ «شينتو» للصلاة. أمّا في نظري فكان المعبد هو النبع، والشرب هو الصلاة، وبلوغ المقدّس مباشرة. لِمَ الاكتفاء بجرعةِ مقدّسٍ إذا كان المتاح وفيراً؟ من بين مظاهر الجمال، الماء هو الأكثر إعجازاً. فهو الوحيد الذي لا يُستهلك فقط بواسطة العينين ومع ذلك لا يُستَنفَد. أشرب لترات ودائماً يبقى منه مقدار ما أشرب.

كان الماء يروي العطش من دون أن يعطش ومن دون أن يروي عطشي. يلقنّني اللامنتهى الحقّ الذي ليس فكرة أو لفظاً، بل تجربة.

كانت نيشيو سان تصلّي من دون اقتناع. أسألها أن تشرح لي ديانة الـ «شينتو». تقف حائرة، متردّدة، ثمّ تبدو كأنها عقدت العزم على اجتناب الشروح المطوّلة، فتجيبُ قائلة:

- المبدأ يقول إنّ كلّ ما هو جميل هو الله.

مذهل حقاً. لم أجد في ما تبديه نيشيو سان من فتور إيمانها أمراً يثير استهجاني. فقد بلغني فيما بعد أنّ هذا المبدأ مثال للجمال الأسمى للإمبراطور الذي كان أَمْيَل إلى الدمامة،

فأدركتُ على نحوٍ أفضل ذلك الفتور الديني لدى مربيّتي. غير أني لم أكن، في ذلك الوقت، قد أدركت بعدُ هذا الأمر، فلم أتوانَ عن الأخذ بذاك المبدأ، وعن التماهي بذاك المقدَّس الذي هو الماء.

على نحوٍ موقَّت: فلدى عودتي إلى المنزل، كنت ألبث فترةً طويلة في المرحاض حيث أغدو أنا الينبوع.

12

كان والدايَ قد نشآ على قيم الكثلكة ومبادئها التي فقداها لحظةَ ولادتي. ولكان إثماً لا أزعمه لنفسي ظنُّ القارئ أنّ في المسألة سبباً ونتيجة، فالحقيقة، للأسف الشديد، أنّ قدومي إلى هذا العالم لا صلة له من قريب أو من بعيد بذاك التخلّي الروحاني: لأنّ اكتشافهما اليابان كان هو السبب الحاسم في ذلك.

لطالما تردّد على مسامع والديّ في صباهما بأنّ المسيحيّة - ومعها الكثلكة - هي الديانة الوحيدة الصالحة الحقّة. حُشيَ رأساهما بمبادئ تلك العقيدة. ثمّ قدِما إلى الـ «كانساي» وتعرّفا إلى حضارةٍ سامية لم تؤدّ المسيحيّة أي دورٍ فيها: فمالا إلى الاعتقاد بأن ما تلقّناه عن الديانة هو مجرّد أكاذيب، فتنكّرا للديانةِ شأن تنكّرهم للأكاذيب، وانصرفا، مذذاك، عن أهدابِ التديّن والتقوى.

غير أنّ هذا لم يحل دون تضلّعهما المشهود بالكتاب المقدّس الذي بقيت لغته وأمثاله كأوجه البديع التي بها يطرّزان أحاديثهما، كترداهما مثال الصيد المعجز من هنا، أو زوجة فوطيفار من هناك، أو زيت الأرملة لمناسبةٍ أو تكثير الخبز لغير مناسبة.

لم يكن لهذا النصّ الطيفي، والطاغي، مع ذلك، في حضوره، إلاّ أن يُثير فيّ شغفاً ممزوجاً بالخشية من أن يباغتني أحدٌ منهما متلبسّةً بقراءته - «تقرأين الأناجيل و«تان تان» بمتناول يدك!» كنت أقرأ تان تان بمتعة والكتاب المقدّس بِهَلَعٍ لذيذ.

كنت أعشق ذلك الرعب الذي يذكّرني بالرعب الذي كان يستبدّ بي عندما أسلك درباً معلوماً يقودني نحو المجهول حيث يتردّد الصوت الأسود العظيم الذي يخاطبني، بصوت أجش عميق، بعبارات «تذكّري جيّداً، أنا الذي يحيا، أنا الذي يحيا فيكِ»، فترتعد أوصالي في عزّ اليقظة، لاقتناعي بأنّ تلك العتمة الناطقة ليست غريبة عنّي، فإذا كانت الله فذاك يعني أنّ الله مقيمٌ فيَّ، وإن لم يكن الله، فذاك يعني أنّ ما ليس هو الله هو صنيعة يدي، ما يجعلني صنوَ الله، أو ما شابه، لأنّ هذا التبرير اللاهوتي كلّه لم يكن، في آخر الأمر، هو القصد والغاية، فقد كان الله كامناً في كلّ ما يعاني الظمأ الدائم إلى الينبوع، ذلك التوق المحموم المستجاب ألف مرّة، المُفعَم حتى الوجد الذي لا ينضب والذي، على الرغم من ذلك، لا يرتوي، معجزة التوق الكامن في المتعة الكامنة.

كنت أؤمن إذاً بالله من دون أن أنفي إيماني بذاتي، ومن دون أن أجاهر بذلك علانية، لإدراكي بأنّ المسألة لا تلقى ترحاباً في بيتنا. كان إيماناً سريّاً أحياه بصمت، ضرباً من الاعتقاد بمسيحيّة الأوائل ممزوجةً بميولٍ شينتوية.

13

أدركتُ على الأثر أنّ الحياة قد لا تكون إلاّ أخفاقاً. كنتُ أعلم أنني سأغادر اليابان، الأمر الذي قد اعتبره إخفاقاً مريعاً. قبل ذلك كنت لا أزال في الرابعة من عمري عندما ودّعتُ سنّ القداسة، جُرِّدتُ من ألوهتي إذاً وإن حَرِصَت نيشيو سان على إقناعي بعكس ذلك. وإذا احتفظتُ في قرارة نفسي ببقيّةٍ من شعوري بنَسَبي الإلهي، فقد كنتُ أواجه كلّ يوم، سواء في اليوشيان أو في أي مكان آخر، البراهين الدامغة في عيون الآخرين على التحاقي بباقي البشر من الفانين. كان مضيّ الزمن يؤكّد منذ البداية نُذُر السقوط.

لم يكن لي أصدقاء بين تلاميذ صفّ الهندباء البرّية ولم أسعَ وراء صداقاتٍ معهم. فمنذ حادثة الأنشودة - الدومينو، كان جميع من في الروضة ينظرون إليّ بازدراء. وكنت لا أبالي.

كذلك الهروب أصبح مستحيلاً، فرضختُ لقضاء الفسح مع الآخرين. إذا لمحتُ أرجوحة خالية لذتُ بها مسرعةً طلباً

للخلوة لا أبارحها متشبّثةً بها لخطورة موقعها الاستراتيجي الذي يتنافس عليه الجميع.

ذات يوم، فيما كنت ألهو على الأرجوحة، لاحظتُ أنّ العدوّ يحاصرني من كلّ ناحية. لم يكن العدو تلاميذ الروضة وحدهم بل تلاميذ المدرسة أجمعين ، أي جميع من يراوح عمره بين الثالثة والسادسة، كانوا يرمقونني بنظرات جامدة. كأنّ الأرجوحة انحازت إلى تآمرهم عليّ، فكفّت عن الترجّح بغتة، وجمدت في مكانها.

انقضّ الحشد عليّ. ولم تكن المقاومة لتجدي نفعاً فاستسلمتُ كنجم الروك المتعب محمولاً على الأكفّ. ثمّ ألقتني أرضاً، وراحت، تلك الأكفّ المجهولة، تنزع عني ملابسي. كان الصمت مطبقاً. وإذ غدوتُ عارية، راحت الأعين ترمقني. لم ينبس أحدٌ بحرف.

جاءت أونباشيّة حانقة متوعّدة وعندما رأت بأمّ العين ما حلّ بي، صاحت بالصبية:

- لِمَ فعلتم ما فعلتم؟ سألت وهي ترتعد حنقاً.

- كنّا نودّ أن نرى ما إذا كانت بيضاء في كلّ موضع من جسمها، تنطّح أحدهم إلى القول.

صاحت المدرّسة الغاضبة بأنّ فعلتهم تلك شائنة جداً، وأنهم ألحقوا العار ببلدهم، وأنهم وأنهم... ثمّ دَنَت من عُريي المستلقي، أقعت راكعة بقربي طالبة من الأولاد أن يعيدوا إليّ ملابسي. وعلى الفور، جاء أحدهم بحذائي، وآخر

بتنورتي، وآخر بفردة جراب، وهكذا على التتالي، مُتَبَرِّمينَ من اضطرارهم إلى التخلّي عن غنيمة حربهم تلك، ولكن بانضباطٍ ورصانة. كانت معلّمتي البالغة تكسوني، تباعاً، بما تحظى به من المغانم المستعادة: فغدوتُ على التتالي عاريةً بجراب وحيد، ثمّ عارية بجراب وتنورة، ثمّ... إلى أن أعيد ترميمي كما كنتُ في السابق.

أرغم الصبيةُ أيضاً على الاعتذار: فسمعتهم، بلا اكتراث، يصيحون كجوقة عساكر، بعبارة الاعتذار الرتيبة «غومين ناساي». ثمّ هرعوا لنيل القصاص في موضعٍ آخر.

- هل أنت على ما يرام؟ سألتني الأونباشيّة.

- أجل، أجبتُها بكبرياء.

- أتودّين العودة إلى المنزل؟

قبلتُ عرضها باعتبارها سانحةً لا تفوَّت. فجرى الاتصال بوالدتي التي جاءت لاصطحابي.

أعجبت أمّي ونيشيو سان بالبرودة التي أبديتها: إذ لم أبدُ مصدومةً لما أصابني من المهانة. وفي قرارة نفسي كان يخامرني شعورٌ غامضٌ بأنّ ردّ فعلي كان ليكون مختلفاً لو أنّ المعتدين أكبر سنّاً. غير أنّ ما جرى هو أنني جرّدتُ من ملابسي على يد أطفالٍ من جيلي: فالأمر إذاً لا يعدو كونه مخاطرة من تلك التي تقتضيها الحرب.

14

بلوغ الخامسة بدا أشبه بالكارثة. ذلك أنّ التهديد الغامض الذي بقي محوِّماً فوق رؤوسنا طوال سنتين قد تجسّد على نحوٍ مباغت: كنّا على وشك الانتقال من اليابان. لكي نستقرّ في الصين.

كنت أعلم منذ مدّة أنّ المأساة ستحلّ بنا ذات يوم، غير أنني لم أعدّ نفسي لذلك. إذ كيف يستعدّ المرء لنهاية العالم؟ أن أُبْعَدَ قسْراً عن نيشيو سان، أن أُنْتَزَع من عالم الكمال ذاك، أن أذهب إلى المجهول: أمور تثير فيّ الغثيان.

عشتُ الأيام الأخيرة كأنّها دوّامة من الفوضى المطلقة. فذاك البلد الذي عاش خمسين عاماً في خشية الزلزال الذي قيل، طوال خمسين عاماً، إنّه وشيك، لم يكن مدركاً بأنّ الكارثة على الأبواب: أليس ابتعادي، أنا، القسريّ عنه هزّات ترجّ الأرض؟ لا حدود لما استبدّ بي من الرعب.

ثم جاءت اللحظة المقدّرة: كان علينا أن نركب السيّارة التي ستقلّنا إلى المطار. أمام المنزل، ركعت نيشيو سان بجانب الطريق. ضمّتني بين ذراعيها كما يضمّ المرء طفله.

ألفيتني في السيّارة التي أغلق بابها. عبر النافذة شاهدت نيشيو سان، راكعةً، منحنيةً تسند جبينها إلى حافة الطريق. بقيت على تلك الحال حتّى توارت عن ناظري. بعد ذلك، لم يعد هناك نيشيو سان.

وهكذا انتهت قصّة ألوهتي.

15

في المطار كان ألمي لفقداني أمّي اليابانية يعتصر قلبي بحيث إنني لم ألحظ إقلاع طائرتنا التي سرعان ما لفظتها أرض الوطن الأمّ باتجاه السماء.

عبرت المركبة الجويّة بحر اليابان وكوريا الجنوبية والبحر الأصفر، ثمّ حطّت في الغربة: في الصين. إذ تجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلّ أرض خارج أرض «الشمس المشرقة» كانت تسمّى، في نظري، غربة.

فكيف إذا كانت الصين الشعبيّة سنة 1972 تُضفي على التسمية شيئاً من غربتها الخاصّة: فتستحيل لا أرض غربة وحسب بل الغربة في حدّ ذاتها.

كم كان غريباً عالم الرعب والريبة الدائمين ذاك. فإذا كنتُ بمنأى عن أيّ من الفظاعات التي كابدها الشعب الصيني في أواخر عهد الثورة الثقافية، وإذا كانت حداثة سنّي قد عزلتني تماماً عن مشاعر التقزّز التي غالباً ما ألمّت بوالديّ، فإني، مع ذلك، قد عشتُ في بكين كأنّني أعيش في عين الإعصار وذلك أولاً لسبب شخصيّ: كأنما لا يكفي أن يكون عَيبُ هذا البلد

أنّه ليس اليابان، بل إنه يمعنُ في الرذيلة بحيث يكون نقيض اليابان. وجدتني أرحل عن جبل دائم الاخضرار لأحلّ في صحراء، صحراء غوبي، التي هي مناخ بكين.

أرضي كانت أرض الماء، أمّا تلك الصين فقد كانت يباساً. الهواء هنا يؤلم التنفّس لشدّة جفافه. فما كان لمنفاي عن الطراوة إلاّ أن تُرجِمَ، من فورِه، أعراضَ رَبْوٍ لم تعرف إلى رئتيّ طريقاً من قبل، وسوف تبقى لصيقةً بسيرتي مدى الحياة. كان العيش في الغربة أشبه بعسرِ التنفس.

أرضي كانت أرض الطبيعة، والورود والأشجار، ياباني كانت حديقة جبليّة. أمّا بكين فكانت أسوأ ما قد تبتكره مدينةٌ من الدمامة، وأسوأ ما قد يبتكره الإسمنت من أسوار الاعتقال.

كانت أرضي مأهولة بالطيور والقرود والأسماك والنسانيس، وكلّ منها طليق في رحابة فضائه. في بكين لم أرَ حيواناً إلاّ مقيّداً في أسرِه: حمير تنوء بالأحمال، أحصنَةٌ مقيّدة إلى عرباتٍ ضخمة، خنازير تستشفّ موتها الوشيك في أعينِ الناس الجائعين الذين يحظّر علينا أن نتحدّث إليهم.

أرضي أرض نيشيو سان، أمّي اليابانية، الصورة المجسِّدة للحنان، للذراعين الحاضنتين، للقبلات الحانية، التي كانت تتكلّم يابانية النساء والأطفال التي هي آية العذوبة في الكلام. في بكين، كانت الرفيقة تراي، التي تقضي مهمّتها الوحيدة بأنّ تشدّ شعري عند الصباح، تتكلّم لغة عهد «عصابة الأربعة»، وهي ضربٌ من اللغو النقيض للمندارينية، صلته باللغة الصينية

مثل صلة أَلْمانيّة هتلر بألمانيّة غوته: تحريفٌ قميء زاخِرٌ بالصوامتِ كصفقِ الصفعاتِ متردّدةً في الحلق.

لستُ هنا في وارد الزعم الأحمق الذي يسوق ما استدقّ من تحاليل سياسيّة على لسان ابنة خمسة أعوام. ذلك أنني لم أدرك فظاعة نظام الحكمِ ذاك إلاّ فيما بعد، لدى قراءة أعمال سيمون لايس، وبعد إقدامي على ما كان محظوراً علينا آنذاك: التحدّث إلى الصينيين. فبين عامي 1972 و1975 كان مجرّد التحدّث إلى أحد العوامّ كفيلاً بالتسبب في سجنه.

ولكنّي وإن كنتُ غافلةً عن حقيقة ما يجري، فقد عشتُ تلك الصين كأنني أحيا نهايات الزمان الطويلة، بكل ما في العبارة من رعبٍ وبهجة. ذلك أنّ التجربة القياميّة هي نقيض السأم. ومن يشهد انهيار العالم يختلط عليه اللهو والأسى: إنه مزيج من مشهد استعراضي ضخم وشرّ مستديم؛ مزيج من لعبة مبهجة وغَرَق؛ خاصّة في عيني طفلة بين الخامسة والثامنة من عمرها.

16

بصرف النظر عمّا روّجت له الدعاوى، كانت بكين جائعة. وإن كان جوعها ذاك أقلّ ضراوةً مما كان يسود الأرياف المحيطة التي عانت ما يمكن وصفه، من دون مبالغة، بالمجاعة. على الرغم من ذلك، كانت الحياة في العاصمة أشبه بالسعي الدؤوب وراء الطعام.

في اليابان كانت البحبوحة هي السائدة، وكذلك التنوّع والوفرة. كان السيّد تشانغ، طبّاخنا الصيني، يجد مشقّة بالغة في الحصولِ على الكرنبِ ودهن الخنزير المعتادَين. كان فنّاناً في مجاله: إذ يتفنّن في تنويع أطباقه المعدّة كلّ يوم من الكرنب ودهن الخنزير. والظاهر أن الثورة الثقافية لم تنجح تماماً في خنق بعض نواحي العبقريّة التي يمتاز بها الشعب وخاصّةً في مجال المطبخ.

كان السيّد تشانغ يجترح المعجزات أحياناً. فإذا قيض له العثور على السكّر، عمد إلى تحميته وتذويبه صانعاً منه منحوتاتٍ مذهلة من الكارامِل، سلالاً وشرائط مقرمشة تثير شهيتي وتستدرّ لعابي.

أذكر أنّه أحضر ذات يوم كميّة من ثمار الفراولة. كانت تلك الثمار إحدى المباهج التي طالما عرفتها في اليابان والتي غالباً ما سأحظى بها في الفترات اللاحقة. ومع ذلك ينبغي لي أن أعترف هنا: إنّ ثمار الفراولة في بكين هي من أفضل ما ينتجه العالم منها. الفراولة هي الرهافة بامتياز. والفراولة الصينيّة تجسّد أرقى ما في هذه الرهافة.

في الصين اكتشفتُ جوعاً كنتُ أجهله: هو الجوع إلى الآخرين. وعلى الأخص الجوع إلى الأطفال الآخرين. في اليابان، لم يكن في حياتي متسعٌ للشعورِ بالجوع إلى الكائنات البشريّة: كانت نيشيو سان تمدّني بوافرٍ من غذاء الحبّ بحيث أغنتني عن طلب المزيد. أمّا أتراب اليوشيان فكانوا لا يثيرون في قرارتي إلاّ الشعور باللامبالاة.

في بكين، كنتُ أفتقد نيشيو سان. فهل غيابها هو ما أيقظ شهيّتي؟ ربّما. طبعاً كان من حسن طالعي أن أمّي وأبي وأختي لم يبخلوا عليّ بالإحاطة والحبّ، غير أنّ وجودهم من حولي لم يعوّض ذلك العشق، ذلك التفاني الذي يشبه العبادة والذي خصّتني به تلك السيّدة من كوبي.

انصرفتُ إلى السعي وراء الحبّ. وكان شرط نجاحي في ذلك السعي أن أقع في الغرام: وهذا ما نلته دونما إبطاء، واتضح، بالطبع، أنّه كارثةٌ تضاعفُ من حدّة جوعي. ولن

يكون غرامي ذاك سوى العطبِ الأوّل في سلسلةٍ طويلة من الأعطاب. وليس مصادفةً أن يحدث ذلك في تلك الصين الخَرِبة. ففي بلدٍ تسوده البحبوحة والسكينة ما كانت الأمور لتبلغ حدّ التأزّم ربّما، وما كانت لتدفعني إلى العصيان والتمرّد. ففي أفلام الحرب وحدها نشاهد أجمل قبلات السينما.

17

كشفت لي بكين أيضاً أمراً كنتُ أجهله: وهي أنّ أبي رجل غريب الأطوار.

لم يكن أبي يتوانى في جلساتنا الخاصّة عن وصف النظام الصيني لتلك الحقبة بأقذع النعوت التي يستحقّها. والحقّ يُقال إنّ عصابة الأربعة أفراد في مضمار الإثم والفسوق. فقد تكون السيدة ماو وعصبتها خير مثالٍ لما قد تبتكره المخيّلات من صور الدناءة غير المبرّرة. ولهم في بانتيون القمامة من المآثِر ما لا يبزّهم في سَبْقِها أحدٌ.

كان أمراً بديهياً أن يضطرّ أبي، لدواعي واجباته المهنية كدبلوماسي، إلى التعامل، لا بل إلى التفاوض مع تلك الحكومة. لم أجد غضاضة في ذلك، لا بل كنتُ شديدة الإعجاب بقدرته على أداء تلك المهمّة البغيضة، والضروريّة في الوقت نفسه، على أكمل وجه.

لم أرَ يوماً أبي فاقداً لشهيته إلى الطعام إلاّ عقب عودته من الولائم الصينيّة التي يقيمها الرسميّون في نظام الحكم. يعود متخماً بكلّ معاني الكلمة، مردّداً على مسامعنا قوله متوسّلاً:

«أرجوكم لا تحدثوني عن الطعام!» و: «أرجوكم لا تأتوا على ذكر عصابة الأربعة بعد اليوم!» وكأنّ من صلبِ سياسة الأخيرة اتخامَ محاوريها بالشراب والطعام، على غرار المآدب البدائيّة حيث وفرة الطعام الذي تقدّمه قبيلة الخصم يكون جزءاً من فنونها العسكريّة.

ولكن، كان يحدث أن يعود أبي من إحدى الولائم غير متخم بذاك الشعور الطاغي بالغثيان: ما يعني أنّه حظي بفرصة التحدّث إلى شو إن لاي. كان إعجابه كبيراً بذاك الرجل. ولم يكن ترؤس الأخير لحكومةٍ فاسدة ليبدّل في هذا الإعجاب شيئاً. كان يشقّ عليّ أن أتفهّم موقفاً مماثلاً. فالمرء إما أن يكون خيّراً وإمّا أن يكون شريراً، لا بين بين، ولا الاثنين معاً.

شو إن لاي كان الاثنين معاً. والتواريخ تدلّ على ذلك: إذ كان من شبه المستحيل أن يكون المرء رئيساً لوزراء الصين في الفترة الواقعة بين 1949 و1979 من دون أن يتحلّى بما قد يسمّيه البعض بالقدرة على التحايل. وقد يرى فيه البعض الآخر أمراً يفوق البراعة ويكاد يجاور فضيلة الليونة. كان الرجل يشارك في أسوأ الحكومات فيخفّف من غلواء جنونها الذي لو أطلق عنانه لكان أشدّ إفساداً.

وإذا كان لشخصيّة تاريخيّة أن تتباهى بأنها عملت، في مضمار السياسة، فيما وراء الخير والشرّ، فهي من دون شكّ شخصيّةَ شو إن لاي. وحتّى أشدّ منتقديه أقرّوا بسعةِ ذكائه وتأثيره.

كان حماس أبي لشو إن لاي يدعوني إلى التفكير. فبغضّ النظر عن التقويم السياسيّ الذي كنتُ عاجزة عنه ويتخطّى حدود قدراتي، كنتُ أشعر بالحيرة حيال يقيني بأنّ من أنجبني إلى هذه الدنيا هو في الحقيقة شخصٌ يتعذّر فهمه وأنّه محقّ في كونه كذلك.

لم تكن شخصيّة أبي وحدها هي المحيّرة في نظري. فقد كانت الصين أرضاً خصبة لكثير من التعقيدات. في اليابان كنتُ أعتقد أن البشريّة مكونة من يابانيين وبلجيكيين، وربّما، تجاوزاً، بعض الأميركيين الذين لم أعرف الكثيرين منهم. أمّا في بكين فقد اتضح لي أنّ اللائحة السابقة ينبغي أن تشمل أيضاً لا الصينيين وحسب، بل الفرنسيين والأسبان والطليان والألمان والكامورينيين والبيروفيين وجنسيات أخرى ليست أقل غرابة وإثارة للفضول.

أضحكني اكتشافي وجود الفرنسيين. هكذا علمتُ أنّ شعباً ما على هذه البسيطة يتكلّم تقريباً اللغة نفسها التي نتكلّمها نحن، وأنّه احتكر نسبتها إليه. كان بلد الشعب المذكور يُدعى فرنسا، وهو بلد بعيد، ويمتلك المدرسة التي أرتادها.

ذلك أنّ عهد الروضات اليابانية قد ولّى إلى الأبد. إذ التحقتُ في سنتي الدراسيّة الفعلية الأولى بمدرسة الفتيان الفرنسيّة في بكين. وكان المدرّسون جميعاً من الفرنسيين وقلّة منهم من المؤهلين.

كان مدرِّسي الأوّل جلفاً لا يتوانى عن ركل مؤخّرتي عندما أستأذنه الذهاب إلى المراحيض. لذلك أحجمتُ عن ذلك خلال الدروس خشية التعرّض لمثل ذاك القصاص العلني المهين.

ذات يوم لم أتمكّنَ من تمالكِ نفسي عن قضاء حاجتي الملحّة، فأفرجتُ عن بَوْلي الحبيس في حجرة الصفّ. ولمّا كان المدرّسُ مسترسلاً في الشرح، فعلتُ ذلك وأنا جالسة على مقعدي. في البداية بدا لي أنّ مناورتي السريّة تلك ستكلّل بالنجاح لولا فيض البَوْل الذي جاوز الكرسيّ وراح يسيل مبتعداً على الأرضيّة في مجرى متعرّج له هسيس كثعبان ماء. لفت ذاك الهسيس الخافت انتباه أحد الواشين فصاح قائلاً:

- يا أستاذ، يا أستاذ، إنّها تبول في الصفّ!

فكانت ساعة المهانة العظمى، إذ تلقّفتني قدم الاستاذ بركلةٍ قذفت بي إلى خارج الحجرة وسط سخرية الأتراب.

كما كانت لحظة إدراكي لما يَعْتَوِر الانتماء القومي من تعقيد: إذ التقيت بلجيكيين لا يتكلّمون الفرنسيّة. فقطعتُ الشكَّ باليقين: غريب أمر هذا العالم حقاً. لغات لا تُحصى تُلهَجُ وتضجّ في أجوائه. فمِن أين السكينة على هذا الكوكب؟

18

إذا كان الكتاب المقدّس هو كتاب أعوامي اليابانية، فإنّ أطلس البلدان كان شغفَ أعوامي الصينيّة. كنتُ جائعة إلى البلدان. وكان وضوح الخرائط يبهرني.

كان من يستيقظ منهم عند السادسة صباحاً يجدني منكبّةً على أوراسيا، متتبعةً تخومها بطرف اصبعي، متحسّسةً الأرخبيل الياباني بحنين. كانت الجغرافيا تغمرني بالشعر الخالص: فلا أعرف جمالاً يفوق جمالَ امتداداتها الشاسعة.

ما من دولةٍ قاومت غزوي المتلمّس. ذات مساء وفيما كنتُ أدبّ متسللةً خلال حفل كوكتيل لاقتناص بقايا الشمبانيا، تلقّفني أبي بين ذراعيه ليعرّف سفير بنغلادِش بي.

- آه، باكستان الشرقيّة، قلتُ متباهية.

كنتُ في السادسة وكنتُ مصابة بشغف الجنسيّات. وقد أتاح لي اجتماعها في مقرّ إقامتنا شبه الإلزامية في سان لي تون فرصةَ الانكباب على التدقيق بها. وكانت الصين هي البلد الوحيد الذي يخفي عنّي هويته.

كانت كلمة «أطلس» تستهويني بما يفوق التصوّر. وإن

رزقتُ يوماً بطفلٍ فسوف أطلق عليه هذا الاسم. وحين دقّقتُ في القاموس وجدتُ أنّ هناك من تسمّى أطلس من قبل.

القاموس كان أطلس الكلمات. يعرّف بمساحتها ورعاياها وحدودها وكان بعض تلك الإمبراطوريات على قدرٍ مذهلٍ من الغرابة: من بينها، على سبيل المثال، سَمْت، وزمرّد، ومحظيّة، ومسحوق الدجّالين.

إذا ما دقّقنا جيداً في الصفحات وجدنا أيضاً العلّة التي نشكو منها. علّتي كان اسمها الشوق إلى اليابان، وهي المؤدّى الفعلي لعبارة «حنين».

كلّ حنين هو ياباني. وليس في سمات المرء ما هو أكثر يابانية من تحسّره على ماضيه وعلى زهوِه المنقضي، وعيشه انقضاء الزمن بوصفه هزيمة مأسوية نكراء. حتّى السنغالي الذي يحنّ إلى سنغال الأزمنة الغابرة هو ياباني من دون أن يعلم. أمّا الطفلة البلجيكية المتحسّرة على ذكريات بلاد الشمس المشرقة فتستحقّ الجنسيّة اليابانية استحقاقاً مضاعفاً.

- متى نعود إلى الديار؟ غالباً ما كنتُ أسأل أبي - والديار هنا تعني شوكوغاوا.

- أبداً لن نعود.

وكان القاموس يؤكّد لي فظاعة تلك الإجابة.

«أبداً» كانت هي البلد الذي أقطنه. بلد بلا عودة. لا

أحبّه. اليابان كانت بلدي، بلدي الذي اخترته لكنّه لم يخترني. «أبداً»، كانت سمةً لي: بوصفي إحدى رعايا دولة «أبداً».

سكان «أبداً» لا رجاء لهم. اللغة التي يتكلمونها هي الحنين. والعملة التي يتداولونها هي الزمن العابر: يعجزون عن اكتنازه وحياتهم تجري بَدَداً نحو جوفٍ يُدعى الموت الذي هو عاصمة بلدهم.

أهلُ «أبداً» هم المشيّدون الكبار لعلاقات حبّ وصداقات وكتابات وصروحٍ أخرى مؤثرة تنطوي على خرابها، غير أنهم عاجزون عن تشييد منزل، أو بناء مستقرّ، أو أي شيء قد يكون ملاذاً دائماً وقابلاً للسكن. ومع ذلك لا يصبو أحدهم إلى شيء بقدر ما يصبو إلى كومة أحجار تكون مسكناً له. قدرٌ محتوم يحول على الدوام بينهم وبين تلك الأرض الموعودة التي يعتقدون أنهم امتلكوا مفتاحها.

أهل «أبداً» لا يؤمنون بأن الوجود نماءٌ، وتضافر جمال وحكمة وثروة وتجربة؛ إنّهم يدركون منذ الولادة أن الحياةَ نقصان، وضياع وخسران وتفرّق. وإذا ما وُهبوا عرشاً فإنّما ذلك لكي يفقدوه. أهل «أبداً» يعلمون منذ سنّ الثالثة ما لا يدركه أهل البلدان الأخرى قبل بلوغهم الثالثة والستين.

غير أنّ هذا لا يعني أنّ سكان «أبداً» هم أناس تعساء. بل على العكس: فما من شعبٍ يضاهيهم بهجةً. فتات النعمة يجعل أهل «أبداً» في غاية السعادة. وميلهم إلى الضحك، إلى الاستمتاع، إلى التلذّذ، والانبهار، لا مثيلَ له على هذه

البسيطة. ولأنّ الموت يسكنهم بقوّة تزداد شهيتهم إلى الحياة حتّى الجنون.

نشيدهم الوطني هو لحن جنائزيّ، ولحنهم الجنائزي هو نشيد للفرح: أنشودة حماسيّة تثير الحميّةَ لمجرّد قراءتها. ومع ذلك يعزفُ أهل «أبداً» كلّ نوتاتها.

الرمز الذي يزيّن رايتهم هو نبتة البَنْج.

19

كان الحصول على السكاكر في بكين أمراً دونه مشقّاتٍ لا تُقارَن بتلك التي يتكبّدها طالِبُها في اليابان. إذ كان يتعيّن عليّ ركوب الدرّاجة وإقناع الجنود بأنّ فتاة في السادسة من عمرها لا يمكن أن تشكّل خطراً داهماً على الشعب الصيني، ثمّ التوغل داخل الأسواق لشراء البونبون اللذيذ والكارامِل المنتهية صلاحيته. ولكن ما السبيل إلى كلّ ذلك عندما ينفد مصروف الجيب الشحيح؟

عندئذ لا يبقى أمامك إلاّ خيار السطو على مرائب الغيتو. ففي تلك المرائب كان البالغون من سكان الحيّ الدبلوماسي يحتفظون بمؤنهم. وكانت أغوار علي بابا تلك محكمة الإغلاق بأقفالٍ وليس أيسر من بَردِ قفلٍ من صنعٍ شيوعيّ.

لم أكن نصيرة التمييز فكنتُ أسطو على المرائب كافّة، بما فيها مرآب منزلنا الذي لم يكن أسوأها من حيث نوعية المغانم. وذات يوم اكتشفتُ فيه نوعاً من الحلوى البلجيكيّة كنت أجهلها تماماً: السبيكولوس أو ما يُعرَف بالبسكويت البلجيكي.

تذوّقت إحداها على عجل. صُعِقت: قرمشتها، نكهاتها،

كان طعمها المدوّخ حدثاً لا يليق بالذوّاقة أن يحتفي به في مرآب. ولكن أين يكون الاحتفال اللائق به؟ سألتُ نفسي لأنني أعلم يقيناً ما هي الإجابة.

قفزتُ من هناك إلى باحة مبنانا، وتسلّقتُ الطبقات الأربع عَدْوَاً، مسرعةً إلى حجرة الحمّام وأغلقت الباب ورائي. جلستُ قبالة المرآة العملاقة وأخرجتُ غنيمتي من بطانة كنزتي الصوف ورحتُ أتلذّذ بأكلها متمعّنةً بانعكاس صورتي في المرآة: كنتُ حريصة على مراقبة نفسي وأنا في حالٍ من المتعة الغامرة. كان طعمُ السبيكولوس بادياً على وجهي.

كان عرضاً سينمائياً مباشراً. يكفي أن أتطلّع إلى نفسي لأعدّد النكهات والطعوم على أنواعها: كان طعمها سكّرياً بالتأكيد وإلاّ لما بدت عليّ تلك السعادة الغامرة؛ لا بدّ أن سكّرها من صنوف السكّر المشوبِ وإلاّ لما اهتاجت الغمّازتان لمذاقه اللاذع. كثيرٌ من القرفة، قال الأنفُ القابض على مزيجٍ من الرائحة والطعم. أمّا العينان المتقدّتان فكانتا تشيان بتوابلَ أخرى، مجهولة بقدر ما هي مثيرة للشهيّة. أمّا أثر الشهدِ، وطعمهُ نفّاذ، فكان للشفتين أن تسبّحا بوجْده.

لكي أشعر براحةٍ أكبر انتقلتُ من مكاني وجلستُ على حافة المغسلة وأنا أواصل التهامي السبيكولوس وحملقتي في صورتي في المرآة. رؤيتي للذّتي تضاعف لذّتي.

ودون أن أدري كان مَثَلي في ذلك مَثَل الذين يرتادون المواخير في سنغافورة حيث السقوف مرايا عملاقة لكي يُتاح

لهم أن يشاهدوا أنفسهم وهم يضاجعون الغواني فيضاعف مشهد غراميّاتهم من شبقهم للغرام.

دخلت أمّي الحمّام وشهدت المعمعة. لم أتنبّه إلى وجودها لشدّة استغراقي فيما أفعل وتابعتُ التهامي للبسكويت ولصورة ذاتي وهي تلتهم البسكويت.

كان الغضب هو ردّ فعلها الأوّليّ: «إنّها تسرق! والأنكى أنها تسرق السكاكر! الصنف الممتاز من السكاكر، علبة السبيكولوس الوحيدة التي نملكها، كنزنا الوحيد، فلا سبيل للعثور على واحدة مثلها في بكين!»

تبع ذلك موقفٌ هو أشبه بموقف الحيرة: «لِمَ لا تراني؟ لِمَ تراقب نفسها وهي تأكل؟»

في آخر الأمر أدركت حقيقة الأمر وتبسّمت: «إنّها تستمتع وتريد أن تشاهد استمتاعها!»

عندئذ برهنت على كونها أماً ممتازة: غادرت الحمّام بصمت وأغلقت الباب وراءها. خلّفتني وحيدةً بصحبةِ لذّتي. وما كنتُ لأعلم بما جرى لو لم أسمعها ذات يوم تروي الحكاية لإحدى صديقاتها.

20

استضفنا لبضعة أيّام في شقّتنا البائسة رجلاً متجهّماً نادراً ما يتبسّم. كان ملتحياً وهو الأمر الذي طالما ارتبط في ذهني بالرجال المتقدّمين في السنّ: والحقيقة أنّه كان مجايلاً لأبي الذي لم يكفّ لحظة عن امتداحه والتعبير عن إعجابه الكبير به. كان الرجل يُدعى سيمون لايس. وقد حلّ ضيفاً علينا ريثما يتدبّر أبي حلاً لمشكلات كان يعانيها في الحصول على تأشيرة دخول.

لو كنت أعلم مسبقاً أنّ أعماله سيكون لها الأثر البالغ في رؤيتي للأمور بعد خمسة عشر عاماً، لنظرتُ إليه نظرةً مختلفة آنذاك. غير أنّ تلك العشرة الوجيزة أتاحت لي، من خلال إعجاب والديّ به، أن أكتشف أمراً بالغ الأهميّة: وهو أن الشخص الذي يؤلّف كتباً جميلة ومُفحمةً بحججها يحظى بإعجاب الناس جميعاً.

ما جرى هو أنّ إقبالي على القراءة قد ازداد على نحوٍ ملحوظ. وأدركت أنّ القراءة لا ينبغي أن تقتصر على ألبومات تان تان والكتاب المقدّس والأطلس والقاموس، بل ينبغي أن

تشمل أيضاً مرايا المتعة والألم تلك التي يسمّونها روايات.

رحتُ أطلبُ من والديّ أن يشيرا عليّ بروايات أقرأها. وكانا يشيران عليّ بقراءة روايات للأطفال. أي بعض ما احتوته مكتبتهما القديمة بعض الشيء من مؤلفات جول فِرن والكونتيس دي سيغور وهكتور مالو وفرنسيس برنيت. بدأتُ القراءة مقلّةً مدخّرةً معظم أوقاتي لمشاغل أخرى. فثمّة أمور تفوق قراءة الروايات أهميّة من قبيل حرب سان لي تون، والتجسّس على الدراجة الهوائية، والسلب باقتحام الأماكن الخاصّة، والتبوّل وقوفاً مع اختبار دقّة التصويب.

ومع ذلك شعرتُ بأنّ في الروايات مكامن تشويق لا تحصى: الأطفال المتروكون لمصيرهم الذين يعانون الجوع والبرد، الفتيات الصغيرات الشريرات المزدريات للآخرين، ورحلات المطاردة عبر العالم وأوجه الانحطاط الاجتماعي، فهذه جميعاً كانت من المشهيّات المغذية لتعطّش النفس. لم أكن حينها أشعر بالحاجة الملحّة إليها، غير أنني كنت أعلم أنّ الحاجة إليها سوف تستبدّ بي في يومٍ من الأيام.

كنتُ أفضّل القصص الخرافية التي تشبعُ جوعاً وتروي عطشاً في قرارة نفسي. في اليابان كانت تلك هي القصص التي طالما روتها لي نيشيو سان (**ياماما ساحرة الجبل؛ مومونارو صيّاد السمك الصغير؛ الكُرْكيّ الأبيض؛ شُكْران الثعلب**) أو أمّي (**بيضاء الثلج؛ سندريلا؛ جلد حمار؛ وغيرها**). أمّا في الصين فكانت حكايات ألف ليلة وليلة التي قرأتها في ترجمةٍ

تعود إلى القرن الثامن عشر والتي أدين لها بأقوى انفعالاتي الأدبيّة وأنا لم أتجاوز بعد السادسة من عمري.

أكثر ما كان يستهويني حقاً في حكايات السلاطين والدراويش والوزراء والبحّارة تلك، هو ما تتضمّنه من سِيَرِ الأميرات. إذ تنبثق إحداهن من الحكاية فاتنةَ الحُسنِ، لا يكتمُ السياق تفصيلاً من جمالها، فإذا ما استردّ القارئ أنفاسَه المخطوفة لسطوة حُسنها، أسرته الأخرى بما يفوق مزايا سابقتها؛ ويوضح النصّ بأنّ هذه آية في الحُسنِ تفوق بنات جنسها روعةً وجمالاً، ولكي يؤكّد مزاعم الحكاية يستعين بوصفٍ يقيم البراهينَ على ذلك. فلا يكاد القارئ يصدّق في غمرة ما يطالعه في النصّ أنّ بين الحِسان من يبزّ الحسناء الأولى روعةً تطالعه ثالثةٌ يكسف بهاءُ طلعتها حُسْنَ الثانية كأنّه من عاديّات المزايا. ولكن سُرعان ما تخبو فتنة الثالثة محتجبةً وراء بهاء رابعةٍ. وهكذا دواليك.

كانت تلك المغالاة في إظهار الأبهى تفوق قدرتي على التخيّل. وكان الأمر مبهجاً.

21

عندما بلغت السابعة من عمري راودني الشعورُ الطاغي بأنني شهدتُ وخَبِرْتُ كلّ شيء.

رحتُ أستعيد في ذاكرتي ما اجتمع لديّ من الخبرات خشيةَ التغافل عن أي تفصيلٍ قد تشهده مسيرة الإنسان في حياته: لقد خَبِرتُ الألوهة وحال الرضى المطلق التي تصحبها؛ كما خَبِرتُ الولادة والغضب وعدم الإدراك والمتعة والكلام والحوادث والأزهار والآخرين والأسماك والمطر والانتحار والخلاص والمدرسة والعَزْل والانتزاع والمنفى والصحراء والمرض والنماء وشعور الفَقْدِ الذي يلازمه، والحرب ونشوة أن يكون لك عدواً، والكحول - آخراً وليس أخيراً -، كما خبِرتُ الحبّ، ذلك السهم المنطلِق في الفراغ.

ما عدا الموت الذي شارفتُ عليه مراراً والذي كان دائماً يعيدني إلى نقطة الصفر، تُرى ما الذي كنتُ أستطيع أن أكتشفه أو أختبره بعد؟

حدّثتني أمّي عن سيّدة ماتت لتناولها، من طريق الخطأ، فطراً ساماً. سألت كم كان عمرها. «تسعة وأربعين عاماً»،

أجابت. سبعة أمثال عمري: فما المُستَهجَن في الأمر؟؟ ما الضير في أن يموت المرء عقبَ حياة مديدة جداً كتلك؟

انتابني رعبٌ خفيّ لمجرّد التفكير في أن مشيئة الفطر الإلهيّة ربّما أمهلتني حتّى بلوغي ذلك القدر من الأعوام: هل ينبغي لي أن أتحمّل سبعة أمثال حياتي قبل بلوغ النهاية؟

لكني سرعان ما أطمئن نفسي: إذ أعيّن سنّ الثانية عشرة حداً نهائياً لحياتي. فيغمرني شعورٌ عميقٌ بالارتياح. اثنتا عشرة سنة، سنّ مثالية للموت. إذ ينبغي للمرء أن يرحل عن هذه الدنيا قبل أن تبدأ مسيرة التداعي.

وعليه كان المتبقّي من عمري خمسة أعوام لا أكثر. فهل ستكون مُضجِرة؟

عاودتني ذكرى محاولتي الانتحار وأنا في الثالثة من عمري، فقد كنت مقتنعةً منذ ذلك الحين بأنني شهدتُ وخَبرتُ كلّ شيء. ولكن إذا كان صحيحاً في تلك الفترة أنّه لم يبقَ ما لم أختبره بشأن خيبة الأمل القصوى إزاء تعذّر الخلود، فإنني مع ذلك خبِرتُ مُنذُها مغامراتٍ تستحقّ العناء. وممّا لم أختبره حقاً هو تجربة الحرب مَثَلاً، وهي مغامرة ممتعةٌ لا يضاهيها شيء.

لم يكن مستبعداً إذاً أن أخوض تجربةً لم أشهد لها مثيلاً من قبل.

تلك الخاطرة كانت مبهجةً وأليمةً في وقتٍ معاً. إذ كان

الفضولُ يحفرُ عميقاً في نفسي: تُرى ما هي هذه الأشياء التي يعجز عقلي عن إدراكها؟

بعد تفكير طويل اهتديتُ إلى احتمال كنت قد أغفلته: صحيح أنني اختبرتُ الحبّ، غير أنني لم أختبر سعادة الحبّ. وبدا لي فجأةً أنّه لا يُعقَل ان أموت قبل أن أختبر ثمالةً كهذه.

في ربيع سنة 1975، بلغنا أننا سننتقل خلال فصل الصيف من بكين إلى نيويورك. أدهشني النبأ: هل العيش ممكنٌ إذاً خارج الشرق الأقصى؟

القرار أغضب أبي. كان يأمل في أن تعتمده الوزارة البلجيكيّة ممثلاً لبلاده في ماليزيا. ولم تكن أميركا تستهويه على نحوٍ خاص. لكنّه أبدى ارتياحه لمغادرة الصين. كنّا جميعاً مرتاحين لمغادرة الصين.

فمغادرة الصين في نظره كانت خلاصاً من جحيم الماوية واشمئزازه الدائم من الجرائم التي تُرْتكَب ولا يُعْرَف لها اسماً.

أمّا في نظري أنا، فكان الخلاص أخيراً من المدرسة التي شهِدت مذلّتي الغرامية، والفرار من تراي التي تشدّ شعري كلّ صباح. لكن أمراً وحيداً كان يشعرني بالأسى وهو فراق السيّد تشانغ، طبّاخنا الساحر.

كان كلّ ذي طابعٍ صينيّ حقّ في الصين يستهوينا. ولكن

لأسفنا الشديد كانت الصين الحقّة تزداد انكماشاً وتضيق فيها فسحة الحياة. إذ حوّلتها الثورة الثقافية إلى معتقلٍ كبير.

ثمّ إنّ الحرب علّمتني أنّ على المرء اختيار معسكره. وما كنت لأتردّد لحظة في الاختيار بين الصين واليابان. صحيحٌ أن هذين البلدين كانا، وبصرف النظر عن أي موقف سياسي، يجسّدان قطبين على قدر كبير من العداوة: وعشق أحدهما يستدعي، إلاّ إذا كان الزيف هو لسان حالنا، بعض التحفّظ حيال الآخر. كنت أجلّ إمبراطورية الشرق المشرقة، أعشق تقشّفها، حسّ الظلال فيها، عذوبتها، تهذيبها. أمّا أنوار إمبراطورية الوسط المبهرة، وغلبة الحمرة عليها، وحسّ الاحتفال الصاخب الغالب عليها، وقسوتها، وجفافها - فلم أكن غافلة عن روعة واقعها، ولكن لَطالما أبقتني خارج إسارها.

كنت أعيش أيضاً تلك الازدواجية في أبسط تجلياتها: فبين بلد نيشيو سان وبلد تراي، الخيار محسوم عندي. كان انتمائي لأحدهما راسخاً بحيث يعجز الآخر عن احتضاني.

22

لمناسبة عيد ميلادي الثامن حظيتُ إذاً بأروع هدية: نيويورك.

كانت المؤامرة محكمة بحيث لا تكفّ عن إرهابنا حتّى الموت. أمضينا ثلاث سنوات تحت المراقبة في غيتو سان لي تون، محاطين بالجنود الصينيين الذين يلازموننا كظلالنا. لثلاث سنوات لم تفارقنا رعشة الخوف من أن يتسبّب أكثر أفعالنا أو أقوالنا تفاهة بأذيّة ما لشعبٍ يعاني ما يعاني من الصعاب.

ثمّ جمعنا أمتعتنا في صناديق وقصدنا مطار بكين مزوّدين بخمس تذاكر سفر إلى مطار كينيدي. حلّقت الطائرة فوق صحراء غوبي، وجزيرة سخالين، والكامتشاتكا، ومضيق بهرينغ. وحطّت في مرحلة أولى لبضع ساعات في مطار أنشوراج، في ألاسكا، حيث شاهدتُ عبر كوّة النافذة عالماً متجمداً غريباً.

بعد ذلك أقلعت الطائرة مستأنفةً رحلتها وغفوت. حتّى أيقظتني أختي هامسةً في أذني تلك الكلمات العجيبة:

- انهضي، وصلنا إلى نيويورك.

كان في الأمر ما يستحقّ أن أستيقظ لأجله: والحقيقة أنّ المدينة بأسرها تستحقّ أن يستيقظ المرء لأجلها. كلّ شيء فيها يسعى إلى بلوغ السماء. لم أرَ في حياتي عالماً مشرئباً، منتصباً مثلها. منذ اللحظة الأولى أكسبتني نيويورك عادةً لازمتني طوال حياتي: أن أسير مرفوعة الرأس.

لم أصدّق عيني. كم هي بعيدة عن بكين العام 1975. لقد غادرنا كوكباً لكي نحلّ في كوكبٍ ليس مؤكداً أنّه تابع للنظام الشمسي.

عندما لمحتُ في التاكسي الأصفر السكايلاين، رحتُ أصيحُ بهجةً وفرحاً. ودامت صيحتي تلك، ثلاثة أعوام.

طبعاً هناك الكثير مما قد يُقال عن أميركا جيرالد فورد وعن نيويورك بخاصّة، عن التباينات الهائلة التي تغلب على المدينة، وما ينجم عنها من جرائم مرعبة وتفاوت في تطبيق العدالة. هذه الأمور لا يمكن إنكارها.

وإذا كانت هذه الصفحات لا تأتي على ذكرها إلاّ لماماً فإنما ذلك بدافع الصدق في التعبير عن هذيان طفلة في الثامنة من عمرها. لا أزعم حتّى أنني أقمتُ في نيويورك: فقد لبثت ثلاثة أعوام طفلةً تحيا نيويورك بما يشبه الجنون.

ومنذ البداية أقرّ بما قد يشوب حكايتي عنها: كأن يقال

إنني لم أكن صافية الذهن، أو إنّ والديّ كانا في تلك الحقبة من القلّة المحظوظة، وغير ذلك. وإذ أضع ذلك كلّه في حسباني لا يسعني إلاّ أن أثبت الآتي: إنها لبهجة أن تحيا في نيويورك وأنت في الثامنة من عمرك، في التاسعة من عمرك، في العاشرة من عمرك - إنها لَبَهْجة! لَبَهْجة! لَبَهْجة!

23

توقّف التاكسي الأصفر أمام عمارة من أربعين طبقة. للعمارة عددٌ لا يُحصى من المصاعد السريعة بحيث إننا بلغنا الطبقة السادسة عشرة بلمح البصر.

غير أنّ السعادة لا تحلّ على المرء مفردة. إذ اقترنت فرحتي بالشقة الفسيحة المريحة المطلّة على «متحف غوغنهايم»، بفرحة أشدّ منها عندما التقيتُ الفتاة التي ستشاركنا الإقامة في بيتنا مقابل خدمات تؤديها، في انتظارنا.

كانت إنجه هي أيضاً قد وصلت للتوّ إلى نيويورك. قَدِمت من منطقة بلجيكيّة ناطقة باللغة الألمانية. فتاة في التاسعة عشرة من عمرها غير أنّ كمالَ جمالها يجعلها تبدو أكبر بعشر سنوات. بدت في عينيّ أشبه بغريتا غاربو.

نيويورك وإنجه: لا بدّ أن تكون الحياة واعدة.

غالباً ما يكون اجتماع فَرحَتين أمارة على فرحة ثالثة: إذ عاد أخي إلى بلجيكا لكي يستكمل دراسته في مدرسة داخلية تابعة للرهبنة اليسوعية. وهكذا لن يقتصر الأمر على إبعاد

أندرِه، ابن الثانية عشرة، عدوّي اللدود رقم واحد، الذي يجد في إثارة حفيظتي غايته المقدّسة، والذي لا يفوّت سانحةً واحدة للسخرية مني، شقيقي الأكبر، لا بل أكبر الأشقّاء قاطبةً، وإيداعه أحد السجون المدرسيّة البعيدة، وهو الأمر الذي يثير فيّ مشاعر السرور البالغ، بل يتعدّى ذلك بطبيعة الحال إلى كونه سيخلي جواري المباشر، ويتوارى عن أنظاري، ويتركني أخيراً، أنا وحدي، إلى جانب أختي الرائعة.

راقبناه أنا وجولييت وهو يستقلّ السيّارة برفقة والدينا اللذين اصطحباه إلى المطار.

- أكاد لا أصدّق، قالت. هذا المسكين يقتادونه إلى سجن بلجيكي، بينما نحن سنحيا في نيويورك.

- عين العدل، غمغمتُ قائلة.

جولييت، البالغة عشر سنوات ونصف السنة، كانت هي حلمي. حين كانوا يسألونها ماذا تودّ أن تكون عند بلوغها سنّ الرشد، كانت تجيب: «جِنّية.»

والحقيقة أنها وُلِدَت جِنّية، وجمالها السّاهم هو البرهان. كان أشدّ ما تصبو إليه هو أن يكون لها ذات يوم أطول شعرٍ في العالم. فكيف لي ألاّ أعشق كائناً له مثل تلك التطلّعات؟

راجعتُ مجمل الظروف المحيطة بي: من الآن فصاعداً لن يكون من حولي سوى أمّي التي لن أقوى في يوم من الأيام على وصف جمالها المشرق، وأختي الرائعة، الجنيّة من جنس الجنيّات - ومعهما إنجه، المجهولة الفاتنة.

وطبعاً سيكون أبي بقربي، وهو ملاذي وسندي الدائم، وما مِن أخٍ أكبر.

عندما تكون الحياة واعدةً بفرحٍ غامرٍ كهذا، عندها فقط تسمّى الحياة نيويورك.

نيويورك مدينة المصاعد الفائقة السرعة التي لم أكتفِ يوماً من اختبارها، مدينة العواصف العاتيّة التي تجعلني طائرة ورق بين هامات ناطحات السحاب، مدينة فجور الذات، والسعي المحموم وراء شراهاتها، وراء إسرافاتها النابعة من أعماق الطوية، المدينة التي تنقل القلبَ من الصدرِ إلى الصدغ المصوَّب عليه مسدّس المتعة على الدوام: «تمتّع أو اهلك.»

تمتّعتُ. طوال أعوام ثلاثة، في كلّ ثانية منها تتبّع نبضي إيقاعَ شوارع نيويورك الهاذي، حيث تسير جموع من الناسِ كأنّها لا تقصد مكاناً بعينه. وكنتُ أقتفي خطوَها بثباتٍ وخشية.

كان ينبغي الصعود إلى قمّة كلّ مبنى على قدرٍ من الارتفاع: البرجين التوأمين اللذين أصبحا في دنيا الغيب، والإمباير ستايت بِلْدِنغ، وتلك الجوهرة الخالصة التي تسمّى كرايزلر بِلْدِنغ. كانت هناك مبانٍ على هيئة تنورة تضفي على المدينة مشيةَ دلالٍ مجنّن.

من الأعلى، المشهد يُذهِبُ العقول. ومن أسفل، يبدو مدوِّخاً.

كان طول قامة إنجه متراً وثمانين سنتمتراً. امرأة ناطحة سحاب. وكنت أسير في شوارع نيويورك ممسكةً بيدها. هي الفتاة الوافدة من قرية بلجيكيّة تبدو دائمة الذهول لما تراه. وكان أهل نيويورك المعتادة أبصارهم منظر الروعة يلتفتون إذا مرّوا بها مسحورين بجمالها، فألتفتُ نحوهم وأمدّ لساني كأنّي أقول لهم: «هذه يدي التي تمسكها وليست يدكم!»

- هذه المدينة لي، كانت إنجه تقول، شامخة الرأس.

وكانت محقّة: لها كانت المدينة الشامخة البنيان المكتظّة بالملايين. فأماكن الولادة أمورٌ عبثيّة لا معنى لها: إذ يستحيل أن تكون مولودةً في قرية في أحد كانتونات الشرق، هي التي لها قامة الكرايزلر بِلْدِنغ ورشاقته.

ذات يوم وفيما كنّا نسلك «ماديسون أفينيو» لحق شابٌ بإنجه راكضاً وأعطاها بطاقته: كان يعمل لحساب وكالة لعارضات الأزياء واقترح عليها أن تخضع لاختبار التصوير.

- أنا لا أتعرّى، قالت مجفلة.

- إذا كنت تشعرين بالخوف، اصطحبي الصغيرة معك، قال.

جوابه أوحى إليها بالثقة. وبمضيّ يومين على الحادثة رافقتها إلى الاستديو حيث انكبوا على تسريح شعرها ووضعوا لها الماكياج وطلبوا منها أن تقف أمام كاميرا وأن تمشي أمامها كما تمشي المانوكانات.

كنت أراقبها بإعجاب. وامتدحوا هدوئي وحسن تربيتي، إذ لم يسبق لهم، كما قالوا، أن تعرّفوا إلى فتاة صغيرة مثلي لا تسبّب أي إزعاج. ولعلّهم لم يدركوا السبب: فقد لبِثتُ مستغرقةً فيما أشهده، مفتونةً بسحر الجمال.

24

جُنَّ جنون والديّ. فعقِبَ ثلاث سنوات من الإقامة الجبريّة لدى الماويين، ذهبَت مباهج الرأسمالية المفرطة بعقليهما. ولم تستكن الحمّى التي استبدّت بهما لحظةً واحدة.

- يجب أن نذهب إلى وسط المدينة كلّ مساء، قال أبي.

يجب أن نشاهد كلّ شيء، أن نسمع كلّ شيء، أن نجرّب كلّ شيء، أن نشرب كلّ شيء، أن نأكل كل شيء. وكنّا أنا وجولييت لا نفارقهما في أي مناسبة. بعد حفلات الموسيقى الكلاسيكيّة أو عروض الكوميديا الغنائية، نقصد مطعماً ونجلس إلى المائدة أمام أطباق شرائح اللحم العملاقة، ثمّ نقصد الكبارِيه للاستماع إلى المغنيّات محتسين كؤوس البوربون. وارتأى الوالدان أنّ مظهرنا ينبغي أن يكون لائقاً لمثل تلك المناسبات، فابتاعا لنا فراء اصطناعية.

لم نكن جولييت وأنا نصدّق أعيننا أمام هذا البذخ. فنسكر ملتحفين بالفرو، ونراقب بنهمٍ الكركند الحيّ من وراء الزجاج الذي يفصلنا عنه.

ذات مساء كان العرض رقصة باليه: اكتشفتُ أنّ الجسد

قادر على التحليق. أبدينا أنا وأختي رغبتنا في تعلّم الرقص لأنّ من بين مواهبنا طاقةً خفيّة في هذا المجال قد تجعل منّا في المستقبل نجمتين: أذعن الوالدان وأدخلانا مدرسة لتعليم الرقص.

في ساعة متأخرة من الليل، كان التاكسي الأصفر يقلّ أربعة بلجيكيين سكارى مستغرقين في تأمّل النجوم، إلى بيتهم.

- إنّها الحياة الحقّة، كانت أمّي تقول.

كانت إنجه ترفض الخروج معنا. «أنا لا أهوى إلاّ السينما، كما أنني أتبع حمية طعام»، تقول. كانت لها حياتها الليليّة الخاصّة، وعلّقت في غرفتها ملصقاً لروبرت ردفورد لا تكفّ عن تأمّله متحسّرة.

- ما الذي يجعله أفضل منّي؟ سألتها واضعةً يديّ على ردفيّ.

تبسّمت وقبّلتني. كانت تحبّني حبّاً جمّاً.

25

تلك كانت أولى سنواتي الدراسيّة الجديّة. ذلك أنّ الـ «ليسّه فرانسِه» في نيويورك مختلفة كلّ الاختلاف عن المدرسة الفرنسيّة في بكين. مؤسّسة متكلّفة الرقيّ، رجعيّة المبادئ، تزدري المؤسسات التعليمية الأخرى. فيها مدرّسون متعجرفون يُفهِموننا كيف ينبغي لنا أن نتصرّف بوصفنا نخبة.

كنت لا أبالي بترهاتٍ كتلك الترهات. وكانت حجرة الصفّ مكتظّة بأولادٍ يثيرونَ في نفسي الفضول فلا أكفّ عن مراقبتهم بكثير من الدهشة. غالبيتهم من الفرنسيين وإن كان في عدادهم بعض الأميركيين لأنّ ارتياد الـ «ليسّه فرانسِه»، في نظر أهل نيويورك، يمثّل ذروةَ الترقّي الاجتماعي. لم يكن بين التلاميذ أي بلجيكي آخر. ظاهرة خبرتها بشيء من الفضول في أنحاء أخرى من العالم: إذ لطالما كنتُ التلميذة البلجيكيّة الوحيدة بين أترابي، الأمر الذي جعلني عرضةً لفنون متنوّعة من السخريّة كنتُ أنا أوّل المستمتعين بطرافتها.

كان ذلك في الفترة التي لم يشهد فيها دماغي أية أعطال. إذ لا تستغرقه عمليات ضرب الكميّات الصمّاء أكثر من ثانية

واحدة مع تعداد كسورِها بنبرةٍ تنمّ عن السأم لشدّة يقيني من صحّتها. أمّا دروس قواعد اللغة فكانت لي كشربِ الماء، فالجهل صفةٌ تجهلها نفسي، لأنّ الأطلس بطاقة هويتي واللغات اصطفتني برج بابلها.

كان من شأن ذلك أن يعمي بصيرتي بالغرور لولا وفائي لعدم اكتراثي بالتميّز.

وكان المدرّسون يهلّلون لنباهتي سائلين المرّة تلو المرّة:

- هل أنت واثقة من كونك بلجيكيّة الجنسيّة؟

فأجيب المرّة تلو المرّة مبدّدةً عذاب الريبة في روعهم. بلى، وأمّي أيضاً بلجيكيّة. وأجدادي وأجداد أجدادي.

كان في هذا ما يزيد من حيرة مدرّسي اللغة الفرنسيّة.

فيما الصِّبية الصغار يرمقونني بنظرات الريبة كأنّهم يقولون في سرّهم: «لا بدّ أنّ في الأمر خدعة.»

والفتيات الصغيرات يرمقنني بنظرات معسولة. ذلك أنّ الأعراف النخبويّة السائدة في المدرسة تغلّبُ على مشاعرِهم فضيلة الإقرار بالأمر الواقع، فيعلنَّ، جهاراً، ومن دون لبس: «أنت الأفضل. فهل تقبلين أن تكوني صديقتي؟»

كان أمراً محبطاً بالفعل. فمثل هذا ما كان ليحدث في بكين حيث المزايا الوحيدة المثيرة للإعجاب هي مزايا المحاربين. ولكنّ الرفض ليس خياراً متاحاً لي: إذ كيف لمن هو مثلي أن يرفض صداقة القلوب النديّة لفتيات صغيرات.

أحياناً كنّا نفاجأ بتلميذةٍ عاجيّة(*)، أو تلميذ يوغسلافي أو يمني في عداد تلامذة المدرسة. وكان وجود هؤلاء، العابر والعشوائي، يثير فيّ مشاعر التعاطف للتطابقِ بين عزلاتنا. إذ طالما وجد الأميركيون والفرنسيون أنّ كون المرء غير أميركي أو غير فرنسيّ أمرٌ يدعو إلى الدهشة والذهول.

تلميذة فرنسيّة انضمّت إلى صفّنا عقب أسبوعين من بدء الدراسة، أحبّتني كثيراً. وكانت تدعى ماري.

ذات يوم، في لحظة من لحظات حماستي اعترفت لها بالحقيقة المرعبة:

- اسمعي، أنا بلجيكيّة.

فما كان منها إلاّ أن أبدت لي أصدق براهين الحبّ على الإطلاق، عندما أسرّت إليّ بصوتها الذي يلفّه الكتمان:

- لن أخبر أحداً بذلك.

(*) أي من ساحل العاج

26

لم يكن المهمّ في نظري أن أذهب إلى المدرسة بل إلى مدرسة الباليه التي كنتُ أواظب على ارتيادها.

هناكَ على الأقلّ لم تكن الأمور يسيرةً. إذ كان ينبغي للمبتدئة أن تلقّنَ جسمها كيف يغدوَ قوساً قابلاً لأن تُشدَّ أوتاره إلى أقصى حدود احتمالها: ولا يُكافأ بالنِّبالِ إلاّ إذا بلغَ منَ المِراسِ حدّاً من الاستحقاق.

كانت المرحلة الأولى تُسمّى مرحلة «الغرانتيكار»[1]. وكانت المدرّبة الأميركية، وهي راقصة مخضرمة نحيلة تدخّنُ كقطارٍ، لا تكفّ عن تأنيبِ اللواتي من بيننا لا يُفلِحنَ في أدائه على أكمل وجه:

- لا عذر لابنة الثامنة إذا عجزت عن أداء «الغرانتيكار». في مثل أعماركنّ تكون المفاصل ليّنة كاللبان.

(1) الـ Grand ecart هي وضعية ينفذّها مزاولو ألعاب القوى أو الرقص، وخاصّة الباليه، تشكّل فيها الساقان زاويةَ انفراج مقدارها 180 درجة.

لذا كنت أهرع لإفراغ علب اللبان جميعها للحصولِ على «الغرانتيكار». وكنتُ أُفلِحُ في أدائه بالقليل من المشقّة. وكم كان يُذهلني أن أرى ساقيّ منفرجتين كالبركار من حولي.

في مدرسة الباليه، كانت التلميذات جميعهنّ أميركيات. عاشرتهنّ لسنوات ولم أحظ بصديقةٍ واحدة من بينهنّ. بدت لي بيئة الرقص تلك مفرطةً في نزوعها إلى الفرديّة: حيث كلّ فردٍ يسعى وراء فوزه هو دون غيره. وإذا ما أخطأت متدرّبة صغيرة في أداء قفزتها وأصيبت بجرح، وقفت الأخريات متبسّمات: فتلك منافسة أخرى تسقط. كُنّ مقتصداتٍ في أحاديثهنّ وإذا شاءت الأقدار أن يتبادلنَ أطراف حديث، فإنما يتحدّثن عن أمر واحد: تصفيات المشاركة في الـ«ناتكراكر».

ففي ليلة عيد الميلاد من كلّ عام، كانت باليه «كسّارة البندق» تؤدّى من قبل أولاد دون سنّ العاشرة على خشبة أكبر الصالات النيويوركيّة. وفي مدينة يحظى فيها عالم الرقص بمثل ما يحظى به من اهتمام في موسكو، كانت المناسبة تعتبَر حدثاً بحقّ.

كانت اللجان الفاحِصة تقوم بجولاتٍ على المدارس المختلفة لاختيار أفضل العناصر. وكانت المدرّبة تبرز أفضل تلميذاتها وتعلِنُ للأخريات أنهّ لا رجاء منهنّ. فعلى الرغم من ليونة أجسامهنّ تُعوِزهنّ الرشاقةُ وحسنُ الأداء، وكنتُ أنا في عداد الفئة الثانية.

سَكْرَة الحواس كانت تنتابني عقِبَ درس الباليه. أعود إلى

بيتنا وأهرع مباشرةً إلى الطبقة الأربعين التي هي عبارة عن حوض سباحة ذي سقفٍ زجاجي. هناك أسبح متمتّعةً بمنظر المغيب على قمم أبهى الأبراج القوطيّة. فألوان سماوات نيويورك مذهلة. روعاتٌ لا تُحصى لأكحّل عينيّ بها: ومع ذلك فإن شراهة عينيّ كفيلةٌ بشربها حتّى الثمالة.

لدى عودتي إلى شقّتنا، يُطلب منّي أن أرتدي أبهى حلّة. فأسارع إلى إنهاء واجباتي المدرسية بلمح البصر، وأنضمّ إلى والدي في الصالون حيث يسكب لي كأساً من الويسكي لأشاركِه الشراب.

كان يخبرني بأنه لا يحبّ عمله:

- الأمم المتحدة ليست مكاناً لرجلٍ مثلي. كلام، كلام متواصل. أنا رجلٌ عمليّ لا أحبّ الكلام. وكنتُ أهزّ رأسي للتدليل على تفهّمي موقفه.

- وأنت كيف كان يومك؟

- كالأيام السابقة.

- الأولى في المدرسة، والأخيرة في الباليه؟

- أجل. ومع ذلك سأمتهن الرقص.

- طبعاً.

كان يقول على سبيل المجاملة. وكنت أسمعه محدّثاً أصدقاءه بالقولِ إنني سأعمل في السلك الدبلوماسي. «إنها تشبهني».

بعد ذلك نقصد «برودواي» للاحتفال بليلتنا. كنت أعشق السهرات التي نمضيها خارج شقّتنا، في وسط المدينة. فأنا لم أعشق المجون إلاّ في تلك الفترة من عمري.

27

شجّعني ما حظيتُ به من حظوة لدى فتيات المدرسة الصغيرات على السعي وراء فوزٍ دونه مشقّة كبيرة: الفوز بقلب إنجه.

كنتُ أنظم لها قصائد حبّ ثمّ أطرق باب حجرتها لأقدّمها لها. فتقرأها على الفور وهي مستلقية على سريرها تدخّنُ سيجارة. وكنتُ أستلقي بجانبها محدّقةً بدخان السيكارة المتصاعد في فضاء الغرفة: كأنّ أبيات شعري هي التي تحترقُ وتتبدّد دخاناً في فضاء الغرفة.

- جميلة، كانت تقول.

- أتحبينني إذاً؟

- طبعاً أحبّك.

- قبّليني.

تقبّلني مدغدغةً بطني. فأضحك كثيراً.

ولكن سرعان ما يستردّ وجهها مسحةَ الكآبة التي لا تفارقه، وتلبث مستلقيةً وهي تدخّن، محملقةً بسقفِ الغرفة.

كنت أعلم سبب حزنها.

- هو لم يكلّمك بعد؟

- لا.

أعني بقولي «هو» رجلاً وقعت في غرامه.

كانت إحدى مباهج الحياة في نظري أن أرافق إنجه إلى حجرة الغسيل، حيث آلات غسل الثياب، في طبقة تحت الأرض من المبنى. كنتُ أراقبَ دوران الغسيل في جرن الآلة، فيما تنصرفُ إنجه إلى التحديق بالرجل الغريب الذي يدخّن سكائره ريثما تفرغ آلته من عملها.

لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّه أعزب ما دام يغسل ثيابه بنفسِه. وكانت إنجه ترى في طلعة ذاك الأميركي الثلاثيني، الرصين، الفارع القامة في بدلته، شبهاً بروبرت ردفورد.

راقبتْ جيّداً مواقيت نزوله إلى حجرة الغسيل وما كانت لتفوّت فرصة اللحاق به مرّةً واحدة.

- في آخر المطاف لا بدّ أن يتنبّه إلى وجودي، تقول.

وتتدبّر أمر انصرافها لحظة انصرافه هو. وفي المصعد تتعمّد أن تضغط زرّ الرقم 16 على نحوٍ لافت بحيث يتمكّن من اللحاق بها إذا أراد. أمّا هو فكان يضغط زرّ الرقم 32 ساهياً عمّا يجري من حوله.

- ضعف الـ 16: إنها علامة، تقول متحسّرة.

«كلام فارغ»، أقول في سرّي.

لم يبدر من ذاك الغبيّ في يوم من الأيام ما يحمل على الظنّ بأنه لاحظ وجودها. لذا كنتُ أنصرف إلى مراقبة الغسيلِ

في دوّامته المزبدة داخل جرن الآلة لأنّ في منظره ما يثير الفضولَ أكثر مما في مظهر ذاك الغافِلِ عن العالم وما فيه. غير أنني لم أفلح في إقناع إنجه بوجهة نظري.

- إنني على ثقة بأنه يرتدي نظّارات لكي يتمكّن من القراءة، تقول هامسةً. أثرها بادٍ على أنفه.

- شخص يرتدي نظّارات هو شخص لا يعتدّ به.

- أعشق أمثاله.

أجريت بعض التحرّيات وتبيّن لي أن فارس أحلامها يُدعى كلايتن نيولاين.

ولفرط ما أضحكني اسمه، هرعتُ إليها أبلّغها ما تكشّف لي ظنّاً مني أنّ أمراً كهذا كفيل بشفائها منه.

- لا يسعك أن تغرمي برجل يُدعى كلايتن، قلتُ لها بثقة من يذكّر الآخر بحقيقةٍ لا تُدحَض.

فاستلقت الفتاة فوق سريرها وراحت تردّد حالمةً:

- كلايتن نيولاين... كلايتن نيولاين... كلايتون... إنجه نيولاين... كلايتن نيولاين...

فبدا لي أنّ حالها ميؤوس منها.

كيف لكائنٍ سماويّ مثلها يعجز اللسان عن وصفه أن يقع في غرام كلايتون نيولاين؟ ما الذي تعرفه عنه؟ أنه يغسل ثيابه بنفسِه، ويرتدي نظّارات لكي يتمكّن من القراءة... هل هذا يكفي؟ تبّاً لي إذا كانت النساء على هذا القدر من السذاجة!

28

كان والداي يستأجران على مسيرة ساعة وربع الساعة في السيّارة، كوخاً ريفياً في موقعٍ ناءٍ وسط الغابة الشاسعة حيث غالباً ما نمضي عطلة نهاية الأسبوع وقسماً من أيّام العُطَل الأخرى.

ثمّة أمر رائع تتميّز به أميركا، وهو أنّنا ما إن نغادر المدينة حتّى نجد أنفسنا وسط خلاء شاسع. هنيهات قليلة تفصل ما بين تجمّعات المباني الشاهقة والأراضي المترامية غير المأهولة. طبيعةٌ حفظت طابعها البرّي على نحو مذهل، لا معلَم فيها ولا بنيان. فجأةً يدلفُ المسافرُ إلى عَدَمٍ وفي اعتقاده أنّ أميالاً تفصله عن أي مظهر من مظاهر الحضارة.

كانت إنجه ترفض أن ترافقنا إلى ذلك المكان: وذريعتها المعلنة أنها لم تهجر قريتها البلجيكيّة لكي تقيم مجدداً وسط الغابة - أمّا السبب المُضمَر فهو حرصها على البقاء حيث يمكن لكلايتن نيولاين أن يجدها إذا ما عقد العزمَ ذات يوم على طرقِ بابها.

كنّا أنا وجولييت نعشق ذلك المكان المسمّى «كنت

كليفس». كنا ننام في غرفة صغيرة نسمع بوضوحٍ عبر جدرانها أصوات الحيوانات الليليّة وطقطقة الأشجار فتلتصق إحدانا بالأخرى على السرير وفي روعنا رهبة الغبطة.

نغتسل سوياً تحت دُشّ بائس تتدفّق منه المياه باردةً برودة الثلج حيناً ولاهبة السخونة حيناً، أشبه بالروليت الروسيّة مطبّقةً على فرضِ النظافة، لكنّها احتلّت مكانةً مرموقةً في الميثولوجيا الخاصّة بنا.

نعمل على تنظيم مباهج لَهوِنا: إذ طالما حرصتُ على أن تلمّ بي نوبة عطش مرضيّة قبل موعد نومنا فأفرط في شرب المياه، وأستلقي بجانب جولييت التي كانت تهزّ بطني المنتفخ فيصدر قرقراتٍ تضحكنا حتّى تدمع أعيننا.

أثناء النهار نسيرُ إلى أن نبلغ مزرعةً شبحيّةً يديرها شخصٌ ساهيَ النظراتِ كان يأذن لنا بركوب خيوله.

زوجته علّمتنا القواعدَ الأساسيّة الأولى لركوب الخيل: إحكام ربط السرج، والطريقة الفضلى للإمساك بالأعنّة. ما أتاح لنا أن نتوغّل بجولاتٍ في مجاهلِ الغابة. أمّا في فصل الحرّ الشديد فقد أتيح لنا أن نختبرَ سبلاً للهو أشدّ روعة: أن نسبح مع الخيول. نمتطي الحصان من دون سرج ونخوّض في ماء البحيرة ونحن على صهوته. وكانت أروع لحظات تلك المغامرة عندما تعجز حوافر الحصان عن ملامسة القعرِ فيشرع في السباحةِ مستعيناً بقوائمه، رافعاً رأسه نحو السماء. وكان علينا آنئذ أن نطوّق عنقه بذراعينا لكي نبقى على صهوته.

في فصل الشتاء كان الثلج يرتفع أمتاراً. وكانت الخيول تحملنا إلى مجاهل البياض الذي يكسو الأرض. وكنا أنا وجوليت ننظر من حولنا مذعورتين لفرط سعادتنا.

بلى، كان هناك ما يدعو إلى الخوف. ولكن ممَّ؟ لا أدري. ربّما الخشية من أنّ قدراً مماثلاً من الغبطة لا بدّ أن ينطوي على أمرٍ ما. وكنتُ أحيا في كنف تلك الخشية التي تؤجّج الحماسةَ في صدري.

كان الرعبُ يزيد جوعي جوعاً. فأغبّ ممّا يأتي قدراً مضاعفاً. أحتضنُ العالم بقوّة حتّى الاختناق. الثلج أيضاً كنتُ أودّ أن ألتهمه. فابتكرتُ ما أسميته «شراب الثلج»: أعصر الليمون الحامض وأضيف السكّر وشراب الجين، وأقصد الغابة حاملة ذاك الإكسير، حيث أنتقي لي طبقةً ثخينةً من الثلج البكر الناعمِ النظيف، وأسكب فوقها الشراب ثمّ أمسك بملعقةٍ وآكل منها حتّى الثمالة. وأعود إلى كوخنا وقد خالطت دمي نسبةٌ مرتفعة من الكحول، وألْهَبَ الثلجُ جوفي.

29

شهدت مدرسة الليسّه فرانسِه في نيويورك ظاهرةً أثارت فيَّ القلق: إذ أغرمت بي عشر فتيات من صفّي. أمّا أنا فلم أغرَم إلاّ باثنتين منهنّ. ووجدتني بإزاء مشكلة حسابيّة.

ما كانت القضية لتعدو كونها مأساة مدرسيّة بحتة لولا اضطراري يومياً إلى اجتياز الجادة. فعند الظهيرة، عقِبَ وجبة الغداء التي يتناولها الجميع في مطعم المدرسة، كان يُسمَح لجميع التلاميذ أن يقضوا فسحةً مدّتها ساعة من الزمن في «سنترال بارك». ونظراً لاتساع الحديقة وجمالها، كانت تلك الفسحة هي اللحظات الأكثر إمتاعاً في يومنا المدرسيّ كلّه.

ولكي نبلغ ذلك المكان الرائع كانت السلطات تفرض علينا أن نشكّل صفّاً ثنائياً طويلاً من التلاميذ على أن يمسك كلّ تلميذ بيد التلميذ الواقف بجانبه. وهكذا نتمكّن من اجتياز الجادة التي تفصلنا عن «سنترال بارك» من دون التسبّب بأي حرج لمدرستنا.

كان ينبغي لي إذاً اختيار تلميذة ما لكي أمسك بيدها أثناء

اجتيازنا الجادة. وكنتُ دائماً أختار إحدى أفضل صديقتين لي، مرّة أختار الفرنسية ماري، ومرّة السويسريّة روزلين.

ذات يوم أعلمتني روزلين المُحبّة بأنّ أزمةً ما باتت وشيكة.

- هناك عدد كبير من تلميذات الصفّ اللواتي يرغبنَ في الإمساك بيدك أثناء اجتياز الطريق.

- ولكن لا أريد أن أمسك بيد أحد سواكِ أنت وماري، أجبتها بعناد.

- إنهن تعساتٌ جداً، قالت روزلين بنبرة احتجاج. كورين مثلاً بكت حتّى جفّ دمعها.

أضحكني قولها لأنّ مسألة مثل هذه لا تستحقّ في اعتقادي أن تذرف لأجلها الدموع. لكنّ روزلين لم توافقني الرأي.

- يجب أن تمسكي أحياناً بيد كورين أو كارولين. ستكون بادرة لطيفة منك.

على نحوٍ مماثل تتصرّف بعض محظيّات الحريم اللواتي يتبرّعنَ بإسداء النصحِ للسلطان بأن يلتفت قليلاً إلى الزوجات المهملات. قد يجوز أن يكنّ فاعلات خير لا غَرَض لهنَّ وقد يجوز أن يكنّ مدفوعاتٍ بالحرص على مصالحهنّ - إذ تغدو إحداهنّ هي محظيّة المحظيّات المقرّبة.

لسلامة نيّتي وحسن ظنّي بالناس، أبلغتُ كورين في اليوم التالي بأنني سأمسك بيدها أثناء اجتيازنا الطريق. وهذا ما جرى بالفعل: إذ وجدتني، في موعد تشكيل الصفّ عَقِب الغداء،

أتقدّم نحوها، على مضض، وأنا ألقي بنظرات الحسرة صوبَ ماري وروزلين اللتين لا تتمتعان فقط بحظوتي، بل أيضاً بيدين رقيقتين ناعمتين، في حين وجدتني مرغمةً على الإمساك بيدِ كورين الغليظة.

ولم يقتصر الأمر على ما سبق. إذ كان عليّ أن أصبر على صيحات البهجة التي أطلقتها كورين كأنّما رأت في تشابك اليدين هذا ظفراً عظيماً وراحت تفاخر طوال اليوم بما اعتبرته حدثاً كونياً.

ذلك أنها لم تكفّ طوال فترة الصباح عن التباهي صائحةً بأعلى صوتها:

- سوف تمسك بيدي!

كما أمضت فترة ما بعد الظهر وهي تردّد قائلةً:

- لقد أمسكت بيدي!

ظَنَنتُ أنّ تلك الحادثة السخيفة لن يكون لها تبعات.

ولكنّي فوجئتُ، لدى دخولي غرفة الصفّ، في صبيحة اليوم التالي، بمشهدٍ خياليّ لم أتوقّعه: إذ وجدتُ كورين وكارولين ودونيز ونيكول وناتالي وآنيك وباتريسيا وفيرونيك، وحتّى المحظيّتيّن ماري وروزلين، منصرفاتٍ إلى الشجار والتقاتل بعنف فيما بينهنّ. فيما وقف الصبيان متفرّجين مستمتعين بالمشهد وباحتساب النقاط.

سألت فيليب عمّا يجري.

- هذا بسببك أنتِ، أجابني، مقهقهاً ضاحكاً. يبدو أنك أمسكت بيد كورين أمسِ. والآن جميعهنّ يردن أن يمسكنَ بيدك. يا لغباء الفتيات!

الأنكى في ذلك كلّه هو أنّه كان محقاً في قوله: الفتيات غبيات جداً. أضحكني الأمر وشاركت جمهور الصبيان فُرجَتَهم. أفرحني كثيراً، في قرارة نفسي، أنّ سبب تلك المعركة الضارية هو رغبة الفتيات في لمس يدي ولو لدقيقتين ونصف الدقيقة.

ولكن شيئاً فشيئاً لم يعد الأمر مسلياً في نظري. ذلك أنّهنّ تعدّينَ التراشق بمساند المقاعد وتبادل الركلِ على الأعقاب: لقد جاوزنَ حدود التراخي! وإذا بهنّ يتدافعنَ بعنف حيناً، وأحياناً تندفع الأصابعُ نحو المآقي - ولم يطل بهنّ الأمر حتّى خرجت إحداهنّ من المعمعةِ الجديرة بلاعبي «الروكبي» شوهاء مدمّاة الجبين.

عندئذٍ رفعتُ ذراعي، مثلي مَثلُ المسيح، مسالِماً وأرسيتُ الهدوء بقوّة صوتي.

على الفور كفّت الفتيات العشر عن التقاتل ورمقنني بنظراتِ الخنوع. كانت المشقّة الفعلية تكمن في امتناعي عن الضحك بأعلى صوتي.

- حسناً، قلتُ لهنّ، لننسَ ما جرى البارحة. من الآن فصاعداً لن أمسك بيد أحد ما عدا ماري وروزلين.

غيظٌ مضطرمٌ في ثمانية أزواج من العيون. أعقبته ثورة عارمة:

- هذا ليس عدلاً! أمسِ أمسكت بيد كورين! ويجب أن تمسكي بيدي أنا أيضاً!

- ويدي أنا!

- ويدي أنا!

- لا رغبة لي في الامساكِ بأيديكنّ! لن أمسك إلاّ بيد ماري وروزلين!

راحتا ترمقانني بنظراتٍ راجيةٍ كي أغيّر رأيي فأدركت أنهما قد تتعرّضان لأعمال انتقامية، هذ فضلاً عمّا أثاره كلامي من ثورة عارمة في صفوف المحتجّات اللواتي استأنفن صياحهنّ.

- بما أنّ الأمور بلغت حدّها ولا بدّ من حلّ، صحتُ بهنّ قائلة بأعلى صوتي. سيتعيّن عليّ أن أفرض قواعد ومن واجبكنّ الالتزام بها.

أمسكت بورقة بيضاء ورسمتُ عليها جدولاً زمنياً لتشابك الأيدي في غضون الأشهر المقبلة: كلّ مربّع يرمز إلى اجتياز الطريق مرّة، ورحت أدوّن بداخله، على نحوٍ ظالِمٍ لا يخضع إلاّ لأهوائي، أسماء الفتيات.

- الاثنين 12، باتريسيا. الثلاثاء 13، روزلين. الأربعاء 14...

وهكذا دواليك. كان إسما محظيّتيّ يتردّدان غالباً،

لشعوري، على الرغم من كلّ شيء، بأنّ من حقّي أنا أن أنتقي من أفضّله على سواه. والغريب في الأمر هو إذعان ذاك الحريم الذي اعتادت محظيّاته منذ ذلك اليوم مراجعة الجدول الثمين صباح كلّ يوم. ولم يكن مستهجناً أن نصادفَ ذات يوم إحدى الفتيات وهي تدقّق في المواعيد برويّةٍ قبل أن تقول بحسرةٍ:

- تبّاً، لن يحين دوري قبل الخميس 22.

كلّ هذا تحت أنظار الصبيان المستهجنة، وقولهم في كلّ مرّة:

- يا للفتيات اللواتي فقدن عقولهنّ.

كنت في سرّي أثني على قولِهم. ذلك أنني، على الرغم من استمتاعي الضمنيّ بذاك التفاني في سبيل صحبتي، لم أكن لأقرّ بصنيع الفتيات. فلو كان حبّهنّ لي لما أعتبره مزايا في شخصيّتي، كبراعتي في استعمال السلاح، أو أدائي المثالي للغرانتيكار، أو براعتي في قفزة السقوط، أو شراب الثلج الذي ابتكرته أو رهافة حسّي، لتفهّمتُ سلوكهنّ على نحو أفضل.

غير أنّ حبّهنّ كان دافعه ذكائي الذي طالما امتدحه الأساتذة والذي ليس في نظري سوى مزيّة عبثية. سبب حبهنّ لي أنني الأولى في صفّي. وكان ذاك وصمة عارٍ على جبينهنّ.

غير أنّ ذلك ما كان ليُفقدني فرحتي الغامرة حين أمسك بيد إحدى صديقتيّ المفضّلتين. لم أكن أعلم ماذا أعني لماري وروزلين؟ - انجذاب؟ حرصٌ على المكانة؟ تسلية؟ عاطفة

حقيقية؟ -، ولكنني أعلم جيداً ماذا تعنيان لي. فقد عانيتُ، في الماضي، ما يكفي من حرمانه لكي أدرك قيمته الفعلية.

ما كانتا تبذلانه لي إنما كانتا تبذلانه تماشياً مع نظام أمقته: قانون الليسّه فرانسِه المقيت الذي يشير بالبنان إلى الكسالى ويُبرز الأوائل للفوز بإعجاب الجميع. أمّا أنا فطالما أحببتُ مَن يثِرنَ فيّ الرغبة في الحلم، مَن تحطّم عيونهنّ الجميلة كلّ نقاط الارتكاز والمعالم، مَنْ تقودني أياديهنّ الصغيرة نحو وجهات غامضة، مَنْ يُثِرنَ فيّ التوقَ إلى النسيان؛ أمّا هما فقد كانتا تعشقان مَن يحقّق النجاح.

في البيت لم يكن الأمر مختلفاً. إذ كنتُ مولعة بحبّ أمّي الفاتنة التي تحبّني، طبعاً، - ومع ذلك كنت أشعر بأنّ هذا الحبّ ليس من الطينة نفسِها. فلطالما كان هذا الشيء الأجوف المسمّى ذكاء مدعاة لافتخار أمّي ولطالما تباهت بما كانت تسمّيه نجاحاتي: فهل كانت مآثري هي أنا؟ لا أعتقد. في نظري أنا لم أكن سوى أحلامي، سوى آلام ليالي الربو عندما أنصرفُ إلى اختلاق رؤى سامية لكي أنجو من الاختناق: وكنت أرفض أن يكون دفتر علاماتي المدرسيّة هو بطاقة هويتي.

كنت أعشق إنجه السماوية التي تحبّني، طبعاً - ولكن هي أيضاً تُراها مَن كانت تحبّ فعلاً؟ كانت تحبّ الفتاة الصغيرة، غريبة الأطوار، تنظم لها قصائد وتبوح لها بحبّها على نحوٍ فكاهيّ. فهل كان ما تراه هي، هو مَن أكون حقاً؟ لا أعتقد.

كنت أعشق جولييت الفاتنة - والمعجزة الحقّة هي أنها كانت تحبّني كما أحببتها، بلا شروط، كانت تحبّني لما كنته حقاً، وتنام بقربي وتحبّني حين أسعل ليلاً: لقد اتسعت هذه الأرض الشاسعة لحبّ حقيقي.

30

مع الرجال كان الأمر يتسم بقدرٍ أكبر من البساطة: فحقيقة أن تحبّهم أو أن يحبّوكَ ليست سوى معطى ذهنيّ محض. كنت أحبّ أبي كما كان أبي يحبّني. لم أرَ في الأمر، يوماً، ولو شبهةَ تعقيد، والحقيقة أنني لم أفكّر في الأمر يوماً.

كان أمراً مُضحكاً في نظري سعي أي فتاة للفوز بحبّ صبيّ. فقد يكون مبرّراً كلّ سعيٍ للفوز برايةٍ أو بـ«الكأس المقدّسة»: لكنّ الصبيّ ليس هذه ولا تلك. وهذا ما كنتُ أستميت في شرحِه لإنجه. لكنْ للأسف لم يُجْدِ الشرح نفعاً.

إلى ذلك، كنت أقرّ بأن الصّبيةَ يتحلّون بشتّى أنواع الفضائل؛ ذلك أنهم بالتأكيد السند الأفضل في العراك؛ وأفضل من تمرّس بلعب الكرة؛ كما أنهم لا يعيقون خطط المعارك بتقلّبات أمزجتهم ويقدّرون بحكمةٍ كوني خصماً لهم لا يُستهان بخصومتي.

لقد تمكّنتُ من الإجهاز على أحد الأتراب بقوّة تفكيري وحدها. إذ أمضيت ليلةً بطولها متمنّيةً موته، وعند الصباح، أنبأتنا المدرّسة وهي على شفير الإنهيار بوفاة ذاك التلميذ.

مَنْ يؤتى له إنجازَ ما دونه مشقّة لن يعصى على مقدرته يسيرُ الأمور: فإذا تمكّنتُ من قتل صبيّ، كيف قد أعجز عن قتل كلمات.

ثلاث كلمات كنتُ أضيقُ بها: المعاناة (إذا كانت في صيغة الفعل)، واللِّبس، والاستحمام (خاصّة إذا كان فعله في صيغة ضميريّة). لم يكن مؤداها هو ما يزعجني، والدليل على ذلك تقبّلي بيسرٍ أي لفظ مرادف لها. إلاّ هي. كان لفظها يثير القشعريرة في بدني.

صرفتُ ليلة بطولها وأنا أكرهها حتّى الموت، أملاً في إحراز فوزٍ يسيرٍ عليها كفوزي على رفيق الصفّ المذكور. ولكن عبثاً، فمع حلول اليوم التالي كانت الألفاظ المقيتة تتردّد كالمعتاد متعافيةً، ناجيةً من كلّ أذى.

كان لا بدّ لي إذاً من سنّ قوانين واضحة بهذا الشأن. فأصدرتُ، في البيت وفي المدرسة، المراسيمَ المحرِّمة لاستخدام الكلمات الثلاث. رمقتني الأعينُ بنظرات التعجّب والدهشة، ولم يكف أحد عن المعاناة واللبس والاستحمام.

كمربيّة ضليعة شرحت لهم أنّنا نؤدي تمام المعنى باستخدامنا كلمات كالمشقّة، والاغتسال وارتداء الملابس. فرمقتني الأعينُ بالتعجب إيّاه والدهشة إياها ولم يغيّر أحدٌ شيئاً من قاموسه اليومي.

جُنَّ جنوني. كنتُ حقاً لا أطيق سماع تلك الكلمات. رنّة «أعاني» في أذني تثير فيّ الغيظ. وحذلقة «اللبس»، في لفظها

المتمادي، تثير فيّ شياطين الجريمة. أمّا الفظاعة ففي لفظ «استحمام» كمالها، ذاك التركيب التعبيري الذي يشير إلى أبهى أفعال المرء على هذا الكوكب: ملاقاة الماء.

كنت أصاب بنوبات غيظ حين تُستخدم تلك الكلمات على مسمعي. وكان الناس يمطّون شفاههم عجباً مثابرين على غيّهم الكلامي. وكان فمي يُرغي ويزبد.

قالت لي جولييت إنها توافقني الرأي:

- هذه الكلمات فظيعة. لن أتلفّظ بها بعد اليوم.

ثمّة من يحبّني على هذه البسيطة.

لمناسبة عطلة عيد الميلاد، أطلق سراح أخي من مدرسته الداخلية البلجيكية وجاء لتمضية أسبوعين معنا في نيويورك. بلغته أخبار مراسيمي اللغوية بفرحٍ عظيم وراح يردّد الألفاظ المحرّمة أربع مرات في الدقيقة الواحدة. كان يهوى مراقبة ردود فعلي ويؤكّد أنني شبيهة ببطلة فيلم «الهرطوقي».

في نهاية الأسبوعين جرى إبعاده مجدداً إلى سجنه اليسوعي.

«هذا جزاء انتهاكك مراسيمي» قلتُ في سرّي وأنا أراه مبتعداً باتجاه المطار.

لكني أدركتُ في النهاية أن الأمور مع البشر أشدّ بساطة منها مع الكلمات: إذ يسعني اغتيال صبيّ عقب ليلة من التأمّل المركّز. أمّا الكلمات فأعجز عن التأثير بها.

كان من سوء طالعي أنّ الكلمات الثلاث المقيتة شائعة الاستخدام. فلا يمضي يوم من دون مكابدة وقعِها عليّ. كانت أشبه برصاص طائش يزخر به فضاء الأحاديث اليومية.

فلو كنتُ أتحسّس من ألفاظ كـ«نصب تذكاري» أو «زيتوم»[1] أو «رغماً عن» لكانت حياتي أقلّ تعقيداً.

ذات يوم تلقّت والدتي اتصالاً هاتفياً من أحد نظّار المدرسة.

- ابنتك تمتلك دماغاً متطوراً جداً.

- أعلم، أجابت أمّي التي لا يرف لها جَفنٌ حيال هذا النوع من المدائح.

- هل تعتقدين أنها تعاني من هذا الأمر؟

- ابنتي لا تعاني إطلاقاً، قالت ضاحكة.

وأنهت المكالمة. ولا بدّ أن الرجل المنتظر على الطرف الآخر من الخطّ قد اقتنع بأنني أنتمي إلى عائلة من المضطربين عقلياً.

لكن أمّي لم تكن مخطئة في آخر المطاف: فباستثناء حساسيّاتي اللفظيّة وأزمات الربو، لم أكن أعاني من شيء. وكانت كفاءاتي الذهنية المزعومة العالية وسيلةً أستغلّها لمتعتي الخاصّة: كنتُ جائعةً وأبتكر لي عوالم ما كانت لتشبع فضولي بالطبع لكنّها تثير فيّ اللذّة حيث يكمن الجوع.

(1) جعة مصريّة قديمة.

31

ارتأى الوالدان أن يذهب أولادهم الثلاثة إلى مخيم ترفيهيّ، غير بعيد عن كوخ «كنت كليفس»، لقضاء عطلة الصيف. وكان غرضهما من ذلك أن نندمج في بيئة أميركية مائة في المائة، لكي نتكلّم اللغة الأميركية بمزيدٍ من الطلاقة.

كلّ يوم كان أبي يقلّنا إلى المخيّم عند التاسعة صباحاً: ولا يعود لاصطحابنا إلاّ عند السادسة مساء. طبعاً كان يومنا هناك يبدأ بأغرب المهازل قاطبةً: تحية العلم.

يتحلّق جميع الطلاب وجميع المشرفين في المرج حول العلم الأميركي الذي يُرفع على السارية للمناسبة. وعندئذ يرتفع دُعاءٌ من نحو مائة حنجرة:

To the flag of the United States of America, one nation, one...

وكان ذاك الهراء الوطنجيّ الذي يبرِزُ في إنشادِه مطالع الألفاظ يُختَم بتهليلٍ ملؤه الحماسة. وكنتُ أنا وجولييت وأندره نقفُ هازئين بذاك القدر من الحماقة: إذ ألفينا أنفسنا خارج نيويورك، أي في مجاهل الغابة الأميركية حيث تقدّس القيم

الحقّة - حيال واقعٍ مثير للضحكِ لشدّة تفاهته.

كنّا، أنا وأختي وأخي، ننشِدُ همساً كلماتٍ مختلفة.

To the corn flakes of the United States of America, one ketchup, one...

وكان المشرفون يسموننا «البلغاريون الثلاثة»: إذ هذا ما فهموه منّا عندما أطلعناهم على جنسيّتنا البلجيكية. غير أن اختلاط الأمر لم يغيّر شيئاً من حسن تعاطيهم معنا معبّرين عن سرورهم لانضمام أولاد من بلدان المعسكر الشرقي إلى مخيّمهم:

- من الرائع أن تتعرّفوا إلى بلد حرّ!

كان هناك نوعان من الأنشطة في المخيّم، قسمٌ منها لأيام الصحو وقسمٌ آخر نلجأ إليه إذا ما ساءت الأحوال الجوية. وبما أنّ الطقس كان رائعاً في معظم الأحوال، كنّا نمضي عدداً لا بأس به من ساعات النهار منصرفين إلى تعلّم ركوب الخيل. وفي المرّات القليلة التي تتلبّد فيها السماء بالغيوم منذرة بهطول المطر كنّا ننصرف إلى حياكة نجودٍ على طريقة قبائل الأباشي أو صنع إدوات للزينة على طريقة قبائل الإيراكوا.

كان مدرّس الأشغال الحرفية الأميركية (بحسب التسمية التي يطلقونها على حصّة الدرس المذكورة) يُدعى بيتر وقد شُغِفَ بي على نحوٍ لافِت. فكان ينتهز كلّ سانحة للاقتراب مني مُشيراً عليّ باستخدام هذه اللؤلؤة أو تلك في تزيين قلاّدةٍ على طريقة قبائل السيو.

- لك سحنة بلغارية أصيلة، قال لي ذات يوم متودّداً.

فاسترسلتُ في شرحِ أصولي الفعلية موضحةً: أنني قَدِمتُ من بلجيكا، وأن بلجيكا هي البلد الذي اخترع السبيكولوس، وفيها نجد أفخر أنواع الشوكولاته.

- أليست صوفيا هي عاصمة بلغاريا؟ سألني بحنوّ غامر.

فاستسلمتُ صاغرةً لسوء الفهم.

كان بيتر في الخامسة والثلاثين من عمره، أمّا أنا فكنتُ في التاسعة. له ولدٌ في مثل سنّي، يُدعى تيري، لم يخاطبني يوماً ولم أخاطبه. وذات مساء سأل المشرف والدي إذا كان يأذن لي بالمبيت عندهم في الليلة التالية لكي ألعب مع ابنه الصغير: فوافق أبي. غير أنّ الأمر بدا لي مستغرباً بعض الشيء: لو أن تيري يكنّ لي حقّاً بعض مشاعر الودّ فهو بارعٌ جداً في إخفائها.

مساء اليوم التالي، اصطحبني تيري إلى منزله. جدران بيته مكسوّة بالنجود الأباشيّة. زوجته الدميمة اللطيفة ترتدي حلياً على طريقة قبائل الشييان. جلستُ أشاهد التلفزيون برفقة تيري الذي لم يبادلني كلمةً واحدة، وكذلك فعلت أنا.

كان طعام العشاء مريعاً. وأكاد أقسم بأن قطع الهمبرغر بالبمّيكان معدّة من عجينة العناكب المهروسة. وإكراماً للضيفة البلغارية قدّموا لبناً رائباً مع الاعتذار بأنّه ليس من بضاعة المنشأ (وهي عبارة يردّدها بيتر في كلّ مناسبة).

عقِب ذلك وضعوني في حجرة رحبة الأرجاء خالية إلاّ من

سرير. بدا لي مستغرباً ألاّ أنام في حجرة تيري، ولكن هذا ما كنت أتمناه في الحقيقة. ارتديتُ بيجامتي ونمت.

عندئذ دخل عليّ بيتر حاملاً بين يديه شيئاً مغلّفاً بقطعة قماش. جلس بقربي على السرير. وبتأثّر بالغ رفع القماش فاتضح أن الشيء هو خوذة جندي:

- إنها خوذة والدي.

نظرتُ إلى الخوذة مُراعيةً شعوره.

- لقد مات في سبيل بلدِك، قال مرتعداً.

لم أجرؤ على سؤاله، لا عن أي بلد يتكلّم ولا عن أي تحرير. كنتُ مرتبكة لجهلي بقواعد حسن التصرّف في مواقف مماثلة.

هل كان ينبغي لي أن أقول شيئاً من قبيل: «شكراً للولايات المتحدة لأنها أرسلت أباك لكي يُقتَل أثناء سعيه لتحرير بلدي التعِس»؟ كان الموقفُ سخيفاً وفيه ما ينال من كرامتي اليانعة.

غير أنّ المشهد كان لا يزال في بداياته. إذ حدّق بيتر طويلاً بخوذة أبيه، ثمّ أجهش بالبكاء وضمّني بين ذراعيه بقوّة مردّداً:

- I love you! I love you!

كان يضمّني إلى صدره كالمعتوه. أمّا أنا فلشدّة خجلي أبقيتُ رأسي فوق كتفِه مغمغمةً لا أدري ماذا أفعل.

لبث على تلك الحال وقتاً غير قصير. وحرت في أمري ماذا أقول لمن يسرّ إليّ بأمرٍ مماثل؟ طبعاً لا شيء.

في آخر الأمر أطلق سراحي ووضعني في سريري. وراح وقد سالت الدموع على خدّيه، ينظر إليّ ويداعب وجنتي. بدا أنه يحبّني، وكم وددت أن أكون في مكان آخر. كنت أعلم أنّ تصرّفه لا ينمّ عن أي سوء، ومع ذلك شعرت بحرج فظيع. شكرني بنبرة تليق بممثلي السينما الأميركية، لأنني «شاركته تلك اللحظة».

بعد ذلك غادر وخلّفني وحيدةً في الحجرة.

قضيتُ ليلةً من الحيرة. من دون تتمّة.

32

عودة إلى نيويورك عند بداية العام الدراسي الجديد.

غرام إنجه بكلايتن نيولاين لم يحرز أي تقدّم. نصحتها أمّي بأن تتحدّث إليه، أن تقوم هي بالمبادرة الأولى.

- أبداً، أجابتها الفتاة بعزّة نفس.

كنتُ أقضي أوقاتاً طويلة بصحبتها. أعشقُ أن أطيل النظرَ إلى وجهها، إلى قامتها. تقيس أثواباً أمام مرآتها، فأعلّقُ على مظهرها في هذا الثوب أو ذاك. ولولا حرجها لارتدت فستان سهرة للذهاب إلى حجرة الغسيل في الطبقة السفلية.

كانت لا تفوّت فرصةً متاحة لوضع غسيل في إحدى الآلات. وتزعم أنّها عليمة بالمواقيت التي يتردّد فيها كلايتن نيولاين على الحجرة. وما إن تلمحه ينخطف لونها، ويتصنّم وجهها.

لا أدري كم مرّة أتيح لنا أن نستقلّ المصعد بصحبة كلايتن نيولاين. حتّى أصبح الأمر أشبه بالهاجس: هو، هي، أنا، في مصعد. هي ترمقه بنظرات نهمة، وهو غافل عنها، وأنا متفرّجة، عاجزة، على المشهد.

ذات مساء، حدثت المعجزة.

كنّا إنجه وأنا قد هرعنا إلى داخل المصعد لحظة دخول الأعزب العتيد إليه. وعندئذ حدث ما لم يكن في الحسبان: إذ غدوتُ أنا كلايتن نيولاين. ما كدتُ أفتح عينيّ حتّى أبصرت. أبصرتُ أمامي أجمل فتاة في الكون، وكانت ترمقني بنظرات متيّمة. كنتُ رجلاً تولّهت امرأة فاتنة بحبِّه: كنتُ الله.

ما كان ذاك المعاق الذي يُدعى كلايتُن نيولاين ليلحظ تلك النعمة لو لم أغدُ أنا هو. ومع ذلك لم يكن هو أنا على نحوٍ تام لأنه لم يركع عند قدميها طالباً يدها للزواج. لكننا اكتشفنا أخيراً صوت كلايتُن نيولاين: إذ دعا إنجه إلى العشاء بصحبته.

كان صوته محبّباً. وحلّت المعجزة أخيراً.

كنتُ عينيّ الأميركي، أرى من خلالهما الفتاةَ موشكة على الإغماء وقد توقّف قلبها عن الخفقان، وأرى حياتها، أرى ذاك المصعد حديقة، أفعى يانعة تمسك بيد العاشقة، تلك كانت أعظم لحظات التاريخ.

كنتُ ابنة التاسعة التي تشهد واقعةً بين المُصطَفَيْن، سيّدة أفكاري، إنجه ذات العشرين عاماً من الكمال الخالص، ورجل أفكاري الذي أهبه قدرتي، أسعد الناس حظّاً في ذلك النهار من دون ريب.

كانت إنجه قد فقدت صوتها، وأضحت عينين فقط تحملقان، وكان من سَعْدِ الكائن عندئذ أن يكون كلايتُن نيولاين إذا حظيَ بنظراتٍ مماثلة - ألا تُفدى البشرية جمعاء إذا

قيض لامرئ أن يحظى، هنيهةً، بنظرة كائن سماويّ له مثل هاتين العينين؟

كأنه بات لصيقاً بها، تلامسها أنفاسُه، سوف أبوح لكَ بسرّ دفين، لطالما أقمت على انتظارِكَ منذ ما قبل عمري، منذ دهورٍ سرتُ لكي أصل إليكَ، فتلمس يداك وجهي، وأعلم أخيراً لماذا أتنفّس، وإن كنتُ لا أتنفّس في هذه اللحظة، سوف أطلعكَ على سرّ دفين، الموتُ لي أيسر من الحياة، لذلك سوف أحيا لأجلك، يا حبّي، لأن كلّ العاشقين يقتبسون من أراغون من دون أن يدروا أو أنهم يدرون ويتكتمون.

سُنّةُ النوع: إذا اجتمعت حديقة ورجل وامرأة ورغبة وأفعى، الأحرى أن نتوقّع الكارثة. وقد وقعت الكارثة الكونية في حجرة المصعد النيويوركي.

استعادت إنجه صوتها. وغشيت برودة مفاجئة ذهول عينيها وتلفّظت بالكلمة المقيتة:

- كلا.

كلا، لن يكون عشاء يجمعها بكلايتن نيولاين، ولن يكون حبّ، لقد انتظرتني دهوراً وها أنذا أخدعك، عناقك لن يحتضن إلاّ الفراغ، أنفاسك لن تحرّق أحداً، انتظرتك منذ جنّة آدم وحواء ولكنّ شيئاً لن يحدث، تلك هي مشيئة الشقاء التي لا تُرَدّ، لن أبوح لكَ بأي سرّ، الموت أيسر عليّ من الحياة،

ولذلك لن تكون حياتي بأسرها سوى موت، كلّ صباح، إذ تتبدّد غشاوة النعاس، ستكون أولى خواطري أنني متّ وقضيَ الأمر، أنني جرّعتُ نفسيَ الموت إذ قلتُ لا للرجل الذي كان هو حياتي، هكذا، بلا سبب، بلا سببٍ سوى الدوار الذي يدعونا إلى تفويت كلّ شيء، سوى تلك القدرة المقيتة لكلمة لا، هذه اللا التي استبدّت بي في لحظة حاسمة من وجودي، أطفئوا الشموع، انزعوا عنكم أبهى ملابسكم، الحَفلُ بلغَ ختامَه قبل أن يبدأ، ألا فلتحتجب الشمس، فليتبدّد الزمن، وليكفّ العالم عن الوجود، ألا فليكن كلّ شيء إلى زوال، وليخلُ قلبي من هذه اللماذا الهائلة، كنتُ تلك التي امتلكت الكون بين يديها وقرّرت أن يموت، مع أنني أردت أن يحيا، ولستُ أدرك ما جرى.

لم يفهم أحد ما الذي جرى. إنجه لم تدرك لماذا قالت لا. إذ انتزعتني تلك الكلمة على الفور من جسد الأميركي، وعدتُ مجدّداً أنا ورمقتُ وجه الفتاة بنظرات مذهولة.

شهدتُ أثرَ اللا التي ثقبت صدرَ كلايتُن نيولاين. لقد أصابت منه مقتلاً على الفور. لكنّه تصرّف بكثير من الاعتزاز بالنفس. واكتفى بـ «أوه» خفيضة، بمثابة جواب.

خير مثالٍ على التّورية: قامت القيامة في قرارة نفسه ولم يعلّق بغير «أوه» خفيضة.

ثمّ أطرق محدّقاً بقدميه ولزمَ الصمت. بعد ذلك لم نسمع رنّة صوته على الإطلاق. إلى الأبد.

توقف المصعد عند الطبقة السادسة عشرة. غادرناه أنا وإنجه. قصّة نهاية العالم جرت أحداثُها في مقصورة مصعد نيويوركي، بين الطبقة -1 والطبقة +16.

انغلق البابان الأوتوماتيكيان على خيبة كلايتُن نيولاين.

أمسكتُ بيد إنجه الباردة كالثلج وجرجرتُ جثّتها حتّى باب شقتنا.

ارتمت الفتاة على الكنبة منهارة.

وأمضت الساعة تلو الساعة وهي تردّد مذهولةً:

- لمَ قلتُ لا؟ لِمَ قلتُ لا؟

وكان سؤالي الأول الذي طرحته عليها:

- لِمَ قلتِ لا؟

- لا أدري.

هرعت أمّي إلينا. وبعبارات متهدّجة لخّصت لها إنجه فصولَ المأساة.

- لِم قلتِ لا يا إنجه؟

- لا أدري.

لم تكن مُنتَحبة. كانت مَيتة.

قرّرت أمّي أن تغيّر مجرى التاريخ.

- الأمر ليس مأسوياً يا إنجه. لن تبقى الأمور على حالها. وسوف تعوّضين هفوتك. إذهبي فوراً واطرقي بابه وقولي له إنك أخيراً تمكّنت من التحرّر من ارتباطاتك السابقة لهذه الأمسية. قولي أي شيء، قولي إنك أخطأت في حساب مواعيدك، اختلقي أي عذر. فمن الغباء تفويت فرصة مماثلة بسبب هفوة.

- كلاّ، يا سيّدتي.

- ولكن لماذا؟

- لا أريد أن أكذب.

- بالعكس. بذلك إنما تعترفين بالحقيقة. لقد قلت لا وأنت تضمرين نعم: هذه هي الكذبة.

- لا لم تكن كذبة.

- ماذا كانت إذاً؟

- كان صوت الشقاء. القَدَر.

- دعكِ من هذا الكلام يا إنجه، هذه حماقة!

- كلاّ يا سيّدتي.

- هل تريدين أن أذهب أنا لأشرح له الأمر بنفسي؟

- لا، أرجوك يا سيّدتي.

- حكايتك، يا إنجه، أشبه بمناطحة الحيطان.

- إنها الحياة.

- الجميع قد يخطئ. والجميع قادر على تصويب أخطائه.

- لقد فات الأوان يا سيّدتي. لا تلحّي عليّ.

ولم تقتنع.

في تلك الليلة اكتشفت أمراً مريعاً: قد يفسد المرء حياته جرّاء كلمة واحدة.

ينبغي القول هنا إنّ هذه الكلمة لم تكن كسواها من الكلمات، بل كانت كلمة «لا»، كلام موت، انهيار كون بأكمله. طبعاً هي كلمة لا بدّ منها، ولكنّي منذ حادثة المصعد النيويوركي، لم ألفظها يوماً إلاّ واخترق سمعي أزيزُ رصاصة. في الغرب الأميركي كان كلّ ثلم يُحفر على أخمص بندقيّة يرمز إلى قتيل: وبذلك يُعرَفُ تاريخ البندقيّة من عدد الأثلام على أخمصها. ولو قيض للكلمات أن تكون لها ذاكرات مماثلة، لكان من المؤكّد أنّ كلمة «لا» هي صاحبة التاريخ الحافل بأكبر عدد من الضحايا.

لم تلبث إنجه أن طُرِدت من عملها في وكالة عرض الأزياء.

- مقدار تعاستك لا يتيح لك أن تكوني جميلة، قال لها ربّ عملها بجفاء.

أمر مؤسف: فقد حدث ذلك في الفترة التي لم تعد تحتاج فيها إلى حمية غذائية لكي تنحف لأنها بلغت، عقب الحادثة، منتهى الهزال.

تابعت إنجه حياتها، وعرفت رجالاً آخرين ولا أزعم أنني عليمة بما شهدته حياتها اللاحقة. ومع ذلك ما زلت مقتنعة بأن جوهر وجودها مات أمام ناظري، في مقصورة المصعد، جرّاء قولٍ عبثيّ.

منذ ذلك اليوم لم ألمحها يوماً متبسِّمة.

33

أفزعني الموتُ الذي تنطوي عليه الحياة.

لكي أشعر بالاطمئنان، أردتُ الكثيرَ من الحبّ. مثل حاكم إقطاعة من القرون الوسطى يثقل كاهل شعبه بالإتاوات الباهظة، فرضتُ على المقرّبات منّي إتاوات المحبّة الجائرة: ولا أغالي إذا قلتُ إنني أثقلت كواهلم بتطلّبي المفرِط.

تقبّلنَ الأمر بطيبِ خاطر، غير أنّ أعطياتهنّ ما كانت تكفيني. كانت إنجه مَيتة وما عاد بوسعها أن تمنحني حباً. فتحوّلتُ عندئذ إلى أسمى النساء قاطبةً: أمّي.

تشبّثتُ بعنقها معانقةً.

- أمّي، أحبّيني.

- أنا أحبّك.

- أحبّيني أكثر.

- أحبّك أكثر.

- أحبّيني أكثر من ذلك.

- أحبّك مقدارَ ما يستطيع المرء أن يحبّ ولَدَه.

- أحبّيني أكثر من ذاك المقدار!

فجأة تنبّهت أمّي إلى المسخ الذي يعانقها. أبصرت الغولَ الذي أنجبته، وأبصرت الجوعَ مجسّداً بعينيه الجاحظتين الواسعتين، مطالباً بما يشبع نهمه ومقدار ما يشبع نهمه يفوق الخيال.

وإذ استلهمت القوى الظلامية، من دون شكّ، نطقت أمّي بكلامٍ قد يرى البعضُ فيه قسوةً، لكنّه تميّز بما تقتضيه الحالُ من صرامةٍ وكان أثره حاسماً في ما تبقّى من حياتي:

- إذا كنتِ تريدين أن أحبّك أكثر، فما عليكِ إلاّ أن تغويني.

شعرتُ بأنّ كلامها ينطوي على شيء من الإهانة لي. فقلت لها حانقة:

- لا! أنت أمّي! وليس عليّ أن أغويك! وواجبك أن تحبّيني!

- هراء ما بعده هراء. ليس من واجب أحد أن يحبّ أحداً. فالحبّ أمرٌ ينبغي أن نستحقّه.

انهرتُ. كان ذلك أسوأ ما سمعته في حياتي: إذ سيترتّب عليّ أن أغوي أمّي. وأن أستحقّ حبّها هي وكلَّ حبّ آخر.

لا يكفي إذاً أن يظهر المرء فجأة ويطالب بأن يُحَبّ. لم أكن إذاً قبساً من ألوهةٍ مُجسَّدة. وجرعات الحبّ الفلكيّة التي أطالب بها لم تكن إذاً حقّاً من حقوقي المكتسبة. وما لبث هذا الاستنتاج أنْ أجهز على ما تبقّى من ثقتي بنفسي.

إغواء أمّي لن يكون بالأمر اليسير. فما العمل؟ لم تسعفني أفكاري.

لا بل أسوأ من ذلك: كان عليّ أن أستحقّ الحبّ. كان حالي كحال الأسرة المالكة الإنكليزية عندما أبلغت أنّها ستضطرّ إلى سداد ما يتوجّب عليها من ضرائب؟ ماذا؟ أليست الأشياء قاطبةً ملكَ يديّ؟

إلى ذلك كنت أشعر بأنني أحتاج إلى الكثير الكثير من الحبّ: ولا يكفيني منه مقدار، فهل أبذل المشقّة لأستحقّ فتاته؟ بالاختصار كان المطلوب منّي أن أشقى وأسعى وراء القدر الذي لن يكفيني.

سعيٌ دؤوب كان ينتظرني. وأدركتُ أمراً اتضح، وما زال يتضح، لي أكثر فأكثر: وهو أنّني سوف أشقى في حياتي.

خاطرة زادت في انهاكي.

لحسن الحظّ كانت جولييت موجودة. معها كان الإفراط مطلقاً، بلا شروط.

كانت رائعة. تكتب قصائد مرصّعة بنعوتٍ غير مفهومة. ودائماً تمزج ما بين الورود والشعر الطويل. تكحّل عينيها ودفترها بالهوامش. كانت الخيول تحبّها. وكانت تجيد الغناء. خاضت مبارزةً مع أحد رفاق صفّها لأنّه جرح إصبعها. وكانت

تجيد قذفَ الكعك المحلّى من المقلاةِ متقلّباً في الفضاء.
وكانت وقحةً في التعاطي مع البالغين.

فرأيت فيها مثالاً يُحتذى.

كان والداي يمتدحانها لأنها تقرأ تيوفيل غوتييه. فوجدت في ذلكَ وسيلة لإغواء أمّي.

وقرّرتُ أن أقرأ كتباً تتعدّى مستوى عمري. قرأت «البؤساء». فعشقتها. وجدتُ متعة حقيقية في تتبع كوزيت المضطهدة من قبل آل تيناردييه. كما فتنتني مطاردة جان فالجان من قبل جافِر.

كان غرضي من القراءة أن أحظى بالإعجاب. فكنت أقرأ وأكتشف أنني أعجَبُ بمن أقرأ عنهم. فقد كان الإعجابُ نشاطاً ممتعاً يخلّف خَدَراً في اليدين، ويُسهّل عملية التنفّس.

كانت القراءة هي الميدان الأمثل للإعجاب. فانكببتُ على القراءة لكي أشعر في الغالب بإعجابي بما أقرأ.

34

كانت الحياة النيويوركيّة تتابع مجراها بمواكب ثمالاتها التي لا تكلّ.

كانت بهجة طويلة الأجل، غير أننا، أنا وجوليت، كنّا قد أدركنا سُنّتها: بهجةٌ لا تتكرّر في زمنٍ واحد. فما إن تقرّر وزارة الخارجية البلجيكيّة أنّ الوقت قد حان، سوف ننتقل إلى حيث تشاء.

لذا كان حريّاً بنا أن نستغلّ الفرصة السانحة قدر المستطاع. فحيثما استقرّ عمل والدي بعد ذلك لن يكون البلد المضيفُ بمثل نزق نيويورك، ولن يتيح بالطبع لا قدراً مماثلاً من الويسكي ولا قدراً مماثلاً من الترفيه الليليّ.

في تلك الحقبة وقعتُ في غرام راقصة، تدعى سوزان فاريل، نجمة نيويورك. كانت أنيقة الأداء، رشيقة على نحوٍ مُهوِل. وكنت أذهب لمشاهدة كلّ عروض الباليه التي تؤديها. ذات مساء، انتظرتها خلف الكواليس لكي أشتري منها خفَّيها اللذين كانت تنتعلهما: وأمام عينيّ المشدوهتين نزعتهما من قدميها المنمنمتين وأعطتني إياهما موقَّعَيْن وقبّلتني.

لاحظتُ أن مقاس رِجلِها مثل مقاس رِجلي أنا بنت التاسعة: فلفرط ما تمرّست سوزان فاريل بالوقوف على رؤوس أصابع قدميها هذه الْتَوَتْ وتقفّعت. واظبتُ منذ ذلك الحين على انتعال الخفّين. في المدرسة كنتُ أتنقّل على رؤوس أصابعي، بحيث إنّ الصِّبيان وجدوا في سلوكي الغريب علامة على اضطرابٍ أكيد في قواي العقلية.

عندما أنحني لربط سيور الخفّين حول كاحليّ كنتُ أشعر بملمس قدميها على كاحليّ، فتسري نشوة في كياني.

أصغي إلى المدرّسة وأنا أحدّق مباشرةً في عينيها، متظاهرةً بقدرٍ من الانتباه لا يرقى إليه شكّ. ولكنّي في الأثناء كنت لا أفكّر إلاّ في أصابع قدميّ المكسوّتين بذخيرة نجمتي المعبودة. فكم كانت لذّتي عظيمة.

35

في فصل الصيف اصطحبنا أبي بسيّارته الدودج في جولةٍ على الغرب الأميركي.

كنتُ أحسب أنني أعرف معنى قولِنا: «متّسع». ولكن على المرء أن يسافر في أنحاء الولايات المتحدة في السيّارة لكي يُدرك حقاً ما هو «الاتساع»: أيامٌ بطولها على الطرقات المستقيمة لا تلمح العينُ خلالها أنسيّاً.

صحارى لامتناهية، حقولٌ شاسعةٌ حتّى يُخيّل لناظرها أنّها لم تُستَنبتْ بأيدي البشر؛ مروج مترامية لا يحدّها بصر؛ جبالٌ شاهقةٌ تلامس الغمام؛ بِقاعٌ قَفْرٌ؛ نُزُلٌ مأهولةٌ بموتى أحياء؛ أشجار أسنّ من الحياة نفسها؛ كاليفورنيا، ولمناسبة عيد ميلادي العاشر سان فرنسيسكو التي عشقتها على الفور. فالمدينة، بتفاوتِ مستوياتها العجيب، كانت تختزل في نظري بـ«غولدن غايت بردج»، وذكريات مبهمة عن «فرتيغو» عند كلّ مفترق طريق.

36

عشرُ سنوات: أعتى ما بلغته من العمرِ في حياتي، النضوج التامّ للطفولة. وما كان يُضاهي سعادتي بها إلاّ قلقي حيالها: من البعيد كانت إلى مسامعي تتناهى قرعة الحزن مؤذِنةً بنهايةٍ ما. وإذا كانت أصداء البلوغِ لم يتردّد رجعُها بَعدُ في أذني فإنَّ دبيب الرحيل المُغْوِل بات، على خفوتِ وقعِه، مسموعاً.

استقرَّ في روعِنا جميعاً يقينٌ بأنّ تلك كانت سنتنا الأخيرة في نيويورك. إثنا عشر شهراً لا أكثر. طعمُ الموتِ في الأشياء قاطبةً باتَ يُجمّلها ويُنقّيها من الأدران فتبدو مؤثِرةً. كانت جوقة الحنين المقبلة تدوزِن الأوتارَ وتلمّع نحاسَ أبواقها.

بُلِّغَ أبي أنه، في الصيف المقبل، سينتقل إلى بنغلادِش. تلك كانت المرّة الأولى التي سينتقل فيها إلى مكان بصفته سفيراً. طبعاً أسعده الأمر لسببين، أولهما أنه سيصبح سفيراً، وثانيهما أنه أخيراً سيرحل غير نادمٍ عن مقرّ الأمم المتحدة التي اقترن عمله فيها بعدوى السأم.

قبل أن نختبر الحياة فيها، كنّا نعلم أن بنغلادِش، أشدّ بلدان العالم فقراً، ستكون نقيض نيويورك. لذلك، وعلى سبيل التحوّط، ضاعفت جرعاتي اليومية من الويسكي. فلعلّ وعسى.

كان قد استقرّ في خَلَدي أن الوجود بأسرِه بهجَةٌ مُسكِرةٌ، أنَّه مأهول براقصاتٍ، مفعَمٌ بمسارح الكوميديا الاستعراضية، وأفُقه الوحيد هو ناطحات سحاب منهاتن.

وكنتُ أؤثِرُ التغافُلَ عن أشدّ صور البؤس في بلد إقامتنا المقبلة.

بتواطؤ مُضمَرٍ فيما بيننا، انغمسنا، أنا وجولييت، في ما بدا لنا إفراطاً في التهتّك. كنا اعتدنا في أعياد الهالوين السابقة أن نتنكّر في زيّ ساحرة أو فتاة جيشا. أمّا تلك السنة فقد اختارت هي للمناسبة أن تتنكّر بزيّ فرسان الهيكل في نسخةٍ تتماشى مع نهايات الألفيّة، فيما تنكّرت أنا في زيّ وافِدٍ من المرّيخ. وسرنا في الشوارع المظلمة منشِدَتَين بأعلى الصوت أهازيج بربريّة، مُعتَديَتَين بالسيوف على مجهولين.

أمَرَت جولييت بأن ننفق مدّخراتنا القليلة كلّها في نيويورك.

– فبأية حال لن نجد في بنغلادِش ما نبتاعه، قالتْ كقارئة الغيب.

وعليه سرعان ما حُطّمَت الحصّالتان وأُنفِقَ ما اكتنزناه في البارات على أكواب «الأيريش كافي» وكؤوس «الساوِر ويسكي

مع مكعّبات الثلج»، وصنوفٍ أخرى من الكوكتيلات ذات الأسماء الغريبة. وفي شقّتنا، أجهزنا على الشَرتريّة الخضراء التي كانت أختي تسمّيها، من قبيل الثناء، بـ«الأبسانت». كانت إنجه تمدّنا بالسكاكر التي تزيد من سكرنا أضعافاً مضاعفة. حتّى إذا حان موعد المدرسة قصدناها مشوّشتي الذهن، عاجزتَين عن النطق.

- يا لها من حياة ممتعة، كنّا نردّد معاً.

الرحيل عن نيويورك، كان يعني أيضاً هجران محظيّاتي. لذا ضاعفتُ اهتمامي بماري وروزلين. تعاهدنا على الحبّ السرمدي، وتبادلنا قطرات من دمائنا، ونثرات من أظافرنا، وخصلات من شعرنا.

على غرار عروض الأوبرا، استمرّت مراسِمُ وداعنا شهوراً. لا نكفّ عن الاحتفالِ بوفائنا وتكرار الحسرة على فراقنا الوشيك، وتعداد التضحيات التي لن تتوانى إحدانا عن بذلها في سبيل الأخريات - «عندما تغادرين لن أذوق طعم المثلّجات بالفستق»-، والبحث المتواصل في كتب الأدب عن مقاطع مؤثرة تعبّر عن الفجيعة الحالّة من دون إبطاء («. . . لمطلع النهار ولختام النهار. . .»)، والسعي لتشابك أقدامنا تحت المقعد وخلال حصّة الدرس.

ماري وروزلين أقسمتا إنّهما بعد رحيلي ستلبثان، من بعدي، أرملَتَين ثكلاوَين. ولم يبقَ إلاّ أن يقطعا عهداً بأنهما

سترتديان ثياب الحداد عليّ وتغطيان رأسيهما بالرماد. ولوداعتي المفرِطة كنت أشعر بالقلق لما ستكابدانه من ألم في مقبل الأيام: ولكي أعزّيهما، ولو أقلّ العزاء، مِن قسوةِ حياةٍ من دوني، اقترحت عليهما أن يتحابا هما الاثنتان. وبدوام ارتباطهما يكرّمان ذكرايَ.

لم أكن أنطق بمثل تلك الفظاعات على سبيل الدعابة أو الهزل. بل لطالما حدّثت أمّي عن ذاك الشقاء اللامتناهي الذي ستؤول إليه حياة محظيّتَيْ عَقِبَ فراقي. فتختار أمّي، عِوَض الجواب، أن تصحبني لمشاهدة " Cosi fan tutte ". وكنتُ أعشق أحداث الرواية غير أنني لا أفهم مغزاها. إذ كنت صادِقةً في مشاعري عازمةً على الوفاء لحبّهما إلى الأبد.

ذات مساء، فيما كنتُ أعالج إحدى نوبات الظمأ الحادة بتجرّعي لترات لا تحصى من الماء، تدخّلت أمّي التي كانت شاهدةً بصمت على الواقعة، وطلبت منّي أن أتوقّف على الفور:

- يكفي.

- إني ظمأى!

- لا. لقد ابتلعت للتوّ خمسة عشر ليتراً من الماء في غضون أربع دقائق. سوف تنفجرين.

- لن أنفجر. أكاد أموت عطشاً.

- سوف تنسين عطشك. هيّا، كُفّي الآن.

شعرتُ بمدّ هائل من الثورة يتعاظمُ في قرارتي. ثمالة الماء كانت غِبطتي الزهديّة التي لا تؤذي أحداً. ما من تجربة أخرى توفّر لي هذا المقدار من الغبطة أو تسوق لي البرهان على أنّ الحياة هي حقاً سخاءٌ ، ما بعده سخاء. ففي عالم يُحصى فيه كلّ شيء، حيث بذل الحصص الأكثر سخاءً تبدو في عينيّ تقتيراً وتقنيناً، كان الماء وحده هو اللامنتهى الحقّ، هو الجدول النابع من المنهل السرمديّ.

لا أدري ما إذا كان الإفراط في شرب الماء مرضاً من أمراض جسدي. لأني كنت أرى فيه عافية نفسي: ألم يكن هو المجاز الفيزيولوجي لحاجتي إلى المطلق؟

كانت أمّي صادِقةً في خشيتها من أن يتسبّب الإفراط في شرب الماء بانفجار أمعائي: غير أنّ خشيتها تلك إنما تنمّ عن جهلها بالطبيعة الطفولية التي كانت تجعلني أشبه بأنبوب. إذ كنت مجهّزة بنظام تصريف مذهل، فلا تمضي خمس دقائق على نوبة الجرعات المفرطة حتّى أدخل الحمّام لفاصل من التبوّل قد يستغرق عشر دقائق من دون توقّف، ما يجعل جولييت تغرق في الضحك إسهاماً منها ببهجة الوجود.

كان الغضب هو سبب انفجاري. إذ يسعون إلى التفرقة بيني وبين الماء، عنصري المكوّن. يسعون إلى عزلي عمّا يعرّفني. كأنّ سدّاً ينهار فجأة في داخلي، وتتدفّق شلاّلات الغضب هادرة.

ولكن سرعان ما كنتُ أهدأ. فلن يكون حرصي على ذاك

الشغف مختلفاً عن سواه: سوف أحياه في الخفاء، هذا الصديق القديم الذي طالما أباح للطفلة البلجيكية أصنافاً محرّمة من السكاكر والكحول وكثيراً من الملذّات المحظورة الأخرى.

كانت طويلة جداً لائحة الممنوعات التي تتطلّبُ، لنيلها، سعياً منّي في الخفاء.

37

إنجه قالت إنها لن تغادر نيويورك. كانت حريصة على البقاء في مسرحِ شقائها.

وكانت هي من أقلّتنا بالسيّارة، ذات يوم مقيت من صيف سنة 1978، إلى المطار.

كنتُ مشوّشة الذهن لشدّة ألمي. طبعاً لم يكن ذاك اليوم هو أوّل قيامة أشهدها في حياتي. غير أنّ هذا النوع من أنواع الفِراق عنوةً ليس من الأمور التي يمكن أن يعتادها المرء؛ وتكراره إنّما يضيفُ إلى الألم المبرح ألماً مبرحاً.

كان عليهم أن يبعدوني بالقوّة عن إنجه التي عانقتها متشبّثةً بعنقها. ومن وراء واجهة الزجاج كانت محظيّتاي ترشقانني بالقبلات. لم أكن أدري مَن وما أداري في وداعي المرّ ذاك.

أمسكت جولييت بيدي. إذ كان شعورها بفظاعة ما يجري لا يقلّ حدّة عن شعوري، وكنت أعلم ذلك جيداً.

طائرة. إقلاع. تلاشي نيويورك في البعيد. أبداً. فجأة انضمّت نيويورك إلى بلاد «أبداً». كم من الخرائب في داخلي. كيف السبيل إلى العيش بصحبة هذا الموت كلّه؟

أختي، الداهية، أطلعتني على سرّ كانت حريصة على كتمانه، فقد خبّأت دورقاً في حقيبة يدها:

- إنها من مياه «كنت كليفس».

حملَقتُ بالكنز المخبوء كأنني لا أصدّق ما أرى. فقد كان «كنت كليفس» هو المكان الذي قضينا فيه أنا وجولييت أحلى ليالينا. وحفنة الماء من «كنت كليفس» كانت في نظرنا أشبه بتعويذة سحر. إكسيرٌ، أبداً لن يفارقنا.

38

سنة 1978، كانت بنغلادش كنايةً عن شارع مكتظٍّ بأناسٍ مشرِفين على الموت.

لم أرَ في حياتي شعباً يختزن طاقةً كتلك التي يختزنها شعب بنغلادش. في عيون جميع الناس هناك جمرة السعي المتوقّدة. يَشْقون بحماسة. والجوعُ السيِّدُ يُلهِبُ دماء البنغلادشيين.

منزلنا كان عبارة عن معقلٍ حصينٍ ومقيتٍ حيث يتوافر الغذاء: وذاك في حدّ ذاته ترفٌ ما بعده ترف.

لم يكن للناسِ من شاغلٍ في نهاراتهم الطويلة سوى مقاومة الاحتضار.

في تلك الحقبة كان والداي على مشارف الأربعين، وهي السنّ التي يشمّر فيها المرء عن ساعديه ويبذل ما بوسعه لإنجاز عمله. وقد استطاع والدي، حيال المهمّة الشاقة التي واجهته، أن ينجز الكثير الكثير.

كنت في الحادية عشرة من عمري. ولا أحسب أنّ سنّاً مماثلة تتميّز بحس التعاطف والبذل. وما كان المظْهَر الماثل أمام عينيّ ليثير في روعي إلاّ مشاعر الهَلَع. وكان مَثَلي مثل السوبرانو التي يُزجّ بها في معمعةٍ دموية ولا يعنيها من أمرِ الواقعة سوى أنّ ضراوة القتال لا تنسجم مع صوتها، ولا تسعى وراء فعلٍ يضفي على وجودها هناك قيمةً ومعنى. لذا تؤثر التزام الصمت.

لَزِمتُ صمتاً مطبقاً.

وشاطرتني أختي صمتي ذاك. كنّا ندرك تماماً أنّنا نعدّ من المحظوظين القلائل فكيف نجرؤ على الكلام؟ كان مجرّد خروجنا إلى الشارع يتطلّب منّا شجاعةً لا توصَف: إذ كان علينا أن نحصّن عيوننا، أن نعدّ لها دروعاً واقية.

لكن برغم الحيطة، كانت أبصارنا معرّضةً لأن تبصر. وكنتُ أتلقّاها، موجعةً، تلك الصدمات المكوّنة من جسومٍ بالغة الهزال، ، من جَدعاتٍ في مواضع غير متوقّعة، من جراحٍ، من سَعلاتٍ، ووذَماتٍ ودمامل، ولكن خاصّة من ذاك الجوعِ الصارخ في معظم الأعين بحيث لا يقوى جفنٌ على حَجْبهِ.

كنتُ أعود إلى معقلنا الحصين مريضةً بالكراهية، كراهية لا تستهدف أحداً بعينه، والتي كنتُ إذاً أصرّفها من حولي، مستبقيةً منها لنفسي القسطَ الذي أستحقّ.

رحت أكره الجوع، كل أنواع الجوع، جوعي أنا، وجوع الآخرين، ورحت أكره حتّى أولئك القادرين على الإحساس بالجوع. كرهت البشر والحيوانات والنباتات. وحدها الأحجار نجت من كراهيتي. إذ كم وددتُ أن أكون حجراً في عدادها.

39

كنّا، جولييت وأنا، نضمر ميولاً خبيثة. فأتى والدي ونبّهنا بحزم: الأجدر بنا أن نعيد النظر في سلوكنا وإلاّ. إذ علينا ألاّ يغيب عن بالنا هنا أنّ الكثيرين الكثيرين يتمنون لو يحظون بأقلّ ممّا نحظى به. ينبغي لنا أن نكفّ عن تقلّبات المِزاج التي تفسد سلوكنا. فهو لطالما كان فخوراً بنا ويرجو أن يبقى فخوراً كما كان.

- الحياة تستمرّ، قال.

كانت عبارته الأخيرة طوفَ نجاةٍ حاولت التشبّث به. تذكّرتُ محظيَّتَيَّ وكتبت لكلّ منهما رسالة طويلة مفعمة بالأشواق. لم أحدّثهما عن بنغلادش: إذ وجدتني لا أعثر على الكلمات المناسبة لكي أفعل. وأوصيتهما أن تستغلاّ وجودهما في نيويورك على أحسن وجه.

لم يبقَ أمامنا أنا وجولييت سوى الانصراف إلى القراءة. كنّا نقرأ، مستلقيتين على الكنبة، إحدانا لِصقَ الأخرى. كانت هي تقرأ «حوارات بين حيوانات»، وأنا أقرأ «الكونت دي مونت كريستو». وكان أمراً مدهشاً أن نتوهّم وجود عالمٍ حيث

حيوانات متخمة تُجْري حوارات مفذلكة، وحيث يمكن للمرء أن يكرّس حياته كلّها لتَرَفِ مثل تَرَف الانتقام.

كنّا نؤثِر البقاء في المنزل إلاّ عند الضرورة. الأمر الذي لم يرق كثيراً لأبوينا فما كانا يكفّان عن لومنا وتأنيبنا. وكنّا دائماً نتذرّع بالحرّ. حجّة لم تقنع أبي فهو الذي يجد نفسه مضطراً إلى استبدال قميصه المبلّل عَرَقاً أربع مرّات في اليوم، لا يرى أن الحرّ عائق.

- أنتما مدلّلتان.

جولييت تقبّلت الوصمة من دون نقاش. أمّا أنا فقد قرّرت، لشدّة انزعاجي، أن أتوجّه مباشرة إلى الخطوط الأمامية إثباتاً لشجاعتي. وهكذا ركبتُ درّاجتي وانطلقت مسرعةً أشقّ طريقي في الزحام باتجاه وسط المدينة حيث تقامُ السوق الكبيرة. كانت السوق عبارة عن أرفف ومفارش من الذباب؛ فما إن يصفق أحد بيديه حتّى تنقشع غمامة من الحشرات المجنّحة متكشّفةً عن قِطَعِ لحمٍ فاسد يبيعه الجزّار.

الصيدليّ كان مجذوماً لم يبق من يده اليمنى سوى ثلاث أصابع، أمّا اليُسرى، ولعلّ الأمر من قبيل العِوَض، فقد حظيت بستّ منها. إذا سألته أن يعطيك بعض أقراص الأسبيرين، دسّ يده المجدوعة الأصابع في أحد الأدراج، وأعطاك حفنةً منها ملء كفّه الشوهاء.

من لم يُبتَلَ من الناس هناك بعلّةٍ كان فائق الحسن. فالنحولُ يُبرزُ أجمل ما في قسمات الطلعة. مسحةٌ من الحدّة

تبرق في عيونهم. فيما الملابس المقتصرة على أبسط معانيها، تبرز الأجسام النحيلة الجافّة.

صراخ تناهى إلى مسامعي مصدره الشارع الرئيسي. سلكتُ مع الهارعين في الاتجاه نفسه، حريصة على التشبّث بدرّاجتي. رجل دهسته سيّارة وحطّمت رأسه. كانت جمجمته مفلّعة. وبقربه نتف نخاع لامعة تحت الشمس.

شعرت بغثيان مفاجئ وقبل أن أتقيّأ تمكّنت من القفز على درّاجتي موليةً الأدبار. فما عدت أريد أن أرى شيئاً، على الإطلاق.

في المعقل الحصين، انضممتُ إلى أختي الجالسة على الكنبة. ولَبِثتُ بجانبها لا أغادر.

40

أصبح جلوسنا الدائم على الكنبة موضوع تندّرٍ بين أهل البيت: إذ يستطيع أيّ كان وفي أي لحظة من اللحظات أن يجدنا، أنا وجولييت، مستلقيتين أو جالستين على الكنبة، منصَرفَتَيْن إلى القراءة. ولا يحين أوان نزوحنا عنها إلاّ مساءً عندما نأوي إلى الفراش.

في تلك الحقبة كانت بنغلادش تخوض تجربةً ديموقراطية. لقد أراد الرئيس الشجاع ضياء عبد الرحمن أن يكذّب المفاهيم المغلوطة التي تزعم بأنّ البؤس يولّد الطغيان. كان يبذل المستطاعَ لكي تغدو بلاده جمهورية تليقُ بمعنى التسمية. ومن خلال حرصه على حرية التعبير، لم يسع إلى إطلاق صحيفة مستقلّة واحدة، بل إلى إطلاق صحيفتين يوميتين مستقلّتين، لكي يُفسَح في المجال أمام صراع الأفكار والنقاش. وهكذا صدرت صحيفتا «بنغلادِش تايمز» و«بنغلادش أوبزرفر».

ولكن للأسف الشديد لم تسفر النوايا الحسنة تلك إلاّ عن نتائج مخيّبة: ففي كلّ صباح، وعند صدور الصحيفتين، كنّا نجد أنّ المطبوعتين مجرّد نسختين من أصلٍ واحد، كلمة

كلمة، وفاصلة فاصلة، وحتّى صورة صورة. ومهما دقّق المعنيون بالأمر لم يجدوا تفسيراً لذلك. وهكذا تواصلت اللعنة الصحافية الخفيّة.

مساء يوم الأحد، أُرغِمْنا، أنا وأختي، على تحرير رسالة موجّهةٍ إلى جدّي لأمي المقيم في بروكسِل: ذلك أن البريد سيُنقَل بالحقيبة الدبلوماسية في اليوم التالي. تلقّت كلّ منا ورقة بيضاء مرفقة بتعليمات مفادها أن المطلوب هو ملؤها. كان أمراً فظيعاً إذ لم يكن لدينا ما نقوله. «هيّا، لن يتطلّب الأمر منكما إلاّ بعض الإرادة!» قالت أمّي بكثير من الإلحاح.

كانت جولييت تحتلّ طرفاً من الكنبة فيما جلست أنا على الطرف الآخر. وانكببنا، دونما تواطؤ، على حكّ رأسينا، بحثاً عن شيء ما: ولشدّة ما أمعنّا الحكّ والتفكير اهتدينا أخيراً إلى بعض العبارات التي دونّاها على الورق بأحرف مكبّرة أضعافاً لكي تملأ المساحة المطلوبة كلّها. وعند نقطة الختام كنا قد استنفدنا قوانا. جاء أبي لجمع ورقتي الاختبار وحملهما معه إلى غرفته.

سمعناه مغرقاً في الضحك مقهقهاً، ينعت رسالتينا بالـ«بنغلادش تايمز» و«بنغلادش أوبزرفر»؛ كلّ أسبوعٍ كنّا نكرّر المعجزة التي وإن كانت لا تضاهي الترجمة السبعينية للتوراة إعجازاً، فهي لا تقلّ عنها مثابرةً ومعاناة: إذ تأتي رسالتانا أنا وأختي، في كلّ مرّة، متشابهتين كلمةً كلمة، وفاصلةً فاصلة. فيا لذلّنا ومهانتنا.

من دون أن ندري كنّا بذلك نجترح تفسيراً لسرّ الصحافة في بنغلادش: إذ مهما سعى شخصان مختلفان إلى التعليق على راهن هذا البلد، كان ضربٌ من القدريّة اللغوية يملي عليهما نصّاً متطابقاً ومحيّراً.

طبعاً إلاّ إذا لم يكن هذان الشخصان المختلفان شخصين مختلفين. في حالة الـ «بنغلادش تايمز» والـ «بنغلادش أوبزرفر» لا أستطيع أن أجزم بذلك؛ أمّا فيما يعنينا أنا وجولييت، فقد بدأت التساؤلات بهذا الشأن تلحّ علينا.

سنتان ونصف السنة هي فارق السنّ بيننا. ولطالما كانت أختي مختلفة عنّي على أكثر من صعيد: فهي أعذب منّي وأرقّ، وهي تميل أكثر منّي إلى التأمّل والحلم، كما أنها أجمل منّي، وأبرع منّي كفنّانة. جولييت كانت هي الشعر مجسّداً. وليس في قولي هذا أي مبالغة، فقد كانت كاتبة: إذ تؤلّف قصائد وروايات ومآسيَ لا تضاهى. أمّا أنا فكنت أقرب إلى الزهديّة: وعندما تباغتني أختي الكافرة غارقة في الصلاة تنفجر ضاحكة. إذاً كان يستحيل الخلط بين شخصيّتينا.

ومع ذلك، بلى. في بنغلادش بدأ مسارُ التشابه بيننا. لم يكن وليد قرار من قبلنا، كما أننا لم نلحظه في البداية. لعلّ العيش معاً على كنبة واحدة كان هو العامل المحفّز لتلك الظاهرة. وهكذا كبرنا على نمط القرينين.

41

أذكر أنني في تلك السنّ بالذات بدأت أنتظر وصول البريد بفارغ الصبر. في البداية كنت أتلقّى أحياناً رسالة قصيرة، لطيفة، من نيويورك: حاملة توقيع ماري أو روزلين. وكان شغفي يمدّ كلماتها بمقدار من القوّة والصدق بحيث أقتنع بأنّها اعترافٌ مبطّن بشغفهما: وكنتُ أسارع إلى الردّ بسيلٍ من العهود الصادرة توّاً عن القلب، غير مدركةٍ التفاوت الكبير بين ما أكتبه أنا وما تكتبانه هما.

وعليه، لم يمض وقت طويل حتّى توقّفت رسائلهما إليّ. استغرقني الإقرار بالحقيقة العارية بعض الوقت: لبثتُ لشهور وأنا أعزو تأخّر الرسائل إلى تقصير من مصلحة البريد. وما كان لتبريري هذا أن يصمد طويلاً أمام سيل الرسائل التي كان والداي يتلقيانها من أنحاء العالم بأسره.

كانت أمّي تحاول أن تواسيني باختلاق شتّى الذرائع والأسباب:

- قلائل جداً هم الناس الذين يكتبون. لكنّ هذا لا يعني أنهم نسوك أو فتر حبّهم لكِ. حتّى إنجه التي تحبّك حبّاً جمّاً

ألم تنبهّك منذ البداية بأنها لن تكتب لك، وذلك لسبب بسيط جداً وهو أنها تنتمي إلى فئة الناس الذين لا يكتبون.

كنت أحاول أن أصدّق. ولكن كان يشقّ عليّ ذلك لأنّ المحظيّتين كانتا تكتبان في البداية. فكيف أضحتا، بين ليلة وضحاها، من فئة الناس الذين لا يكتبون؟ ما سبب هذا التغيّر الطارئ؟

- أنا لا أتغيّر! كنتُ أجيب بحسرة.

- بلى، أنت تتغيّرين.

وكانت محقّة: إذا كانت مشاعري ما زالت على حالها، فإنّ مكانتي في المقابل قد تغيّرت. لم أعد على الإطلاق تلك الملكة التي حسبتُ أنّها أنا خلال إقامتنا في نيويورك. هذا أقلّ ما يقال بهذا الشأن لأنني فقدتُ مملكتي.

لحسن الحظّ أن ما تبقّى لي هو القسط الأوفر من الطفولة. وعندما كان والداي يصحبانا، أنا وجولييت، في جولاتهما في أنحاء البلاد، كانت حيوية الطفولة تسكرني. ما إن ألمح ساعدَ نهرٍ، أو بحيرة، أو نهراً - وبنغلادش بأسرها مساحةٌ تغطّيها المياه - حتّى أشعر بأنني عاجزة عن مقاومةِ نداء عنصري المكوِّن. وهكذا بعد أن سبحت في الغانج، عند أسفل مصبّه، أُصبت بالتهاب العصرِ في أذني وتركتُ في مجرى مياهه نصفَ سمعي.

لم يكن ذلك البلد يمتلك ثرواتٍ أو أي محاسن أخرى ما عدا شعبه الذي لكثرة عدده كان أيضاً السبب الرئيسي لبؤسِه

الخرافي. جلنا في كلّ مقاطعة من مقاطعاته ولم نجد ما يلفت في أي منها إلاّ الناس الذين ألفيناهم على الدوام رائعين؛ وللأسف دائماً كان نصفهم موشكاً على الموت. حتّى حسبنا أنّ الموت هو الشغل الشاغل لأهل بنغلادش.

في بنغلادش كان شغل أبي الشاغل هو العمل للحيلولة دون موت الناس من خلال توفير المعونة اللازمة للتنمية. في بلدة يسمّونها جالشاترا، وسط الأدغال، أنشأت امرأة بلجيكية مصحّةً لرعاية المجذومين. وكان أبي شديد الحماسة لقضيّتها. وهكذا أضحت جالشاترا مكاناً لإقامتنا شبه الدائمة.

المرأة البلجيكيّة المعنية أشبه بجندي متنكّر بمسوح راهبة تدعى ماري بول. لقد زحزحت جبالاً لكي تنجح في إقامة ذلك المشفى. تنام ساعات قليلة وتصرف أيّامها بلياليها في علاج أناسٍ لم يبقِ المرض من جسومهم إلاّ الذكرى، وفي تدبير شؤون مخيّمها، والبحث عن مصادر للطعام، وصدّ الأفاعي والنمور عن حماها.

لم تكن حياة الأخت ماري بول مختلفةً في يوم من الأيام منذ أن دقّت، قبل عشرين عاماً، أوّل وتد في مخيّم مشفاها. فلا عَجَبَ أن تكون نحيلة، خشنة البشرة، فظّة بعض الشيء في تعاملها مع الآخرين.

تبرّع والداي بمساعدتها في تدبير شؤون مخيّمها. وبدأنا أنا وأختي بمطاردة القرود في الغابة. وإذ أبدت القرود عداءً

بادياً حيالنا، عدنا أدراجنا إلى المشفى. لم نجد شيئاً يعيننا على اللهوِ في محيط المكان، فجلسنا على حجر.

- أتودّين رؤية المجذومين؟ سألتُ جولييت.
- أنت تمزحين!
- ماذا سنفعل إذاً؟
- إنه سؤال وجيه.
- برأيك أين يضعون الأموات؟
- يدفنونهم، على ما أعتقد.
- سأذهب للبحث عنهم.
- أنتِ مجنونة.

فتّشتُ في أنحاء جالشاترا في كل اتجاه ولم أهتد إلى المكان الذي يدفنون فيه الجثث. كان من لم يقعدهم الجذام يتسكّعون هنا وهناك. فحالهم، برغم كلّ شيء، تبقى أفضل ممن أكل المرض معظم أجسامهم. رجل من دون أنف يفترش التراب: كان الناظر إليه يستطيع أن يرى دماغَه من تجويف المنخرين المتآكلين.

اقتربت منه وحدّثته. بقليل من المفردات البنغالية قال لي إنّه لا يفهم الإنكليزية. وكان دماغه يهتزّ إذا تكلّم. أذهلتني تلك الرؤية: فاللغة لم تكن سوى دماغٍ يهتزّ.

عند المساء وزعوا علينا الغرف: تشاركنا أنا وأختي غرفة صغيرة كالزنزانة بنافذة ضيّقة أشبه بجمجمة. لم تكن الكهرباء

متوفّرة، والإضاءة تقتصر على شمعة واحدة. في الضوء الخافت المتراقص كنّا نرى العناكب الضخمة التي لم تخفني في يوم من الأيام. وكلّما أرادت جولييت أن تقضي حاجةً كنت أرافقها إلى المرحاض لكي أحميها من العناكب. تلك الأماكن التي تسمّى في الأصل أماكن راحة بدت لي أشدّ خطورة من الخطر نفسه. ولم تكن جالشاترا إلاّ البهو المفضي إلى الجحيم. استلقينا على قطعتي الحصير المتوفرتين وقرّرنا ألاّ نغادر الزنزانة إلاّ عند الضرورة الملحّة. أثناء الليل كنّا نسرّي عن أنفسنا بتفسير الأصوات المختلفة التي تتناهى إلى مسامعنا من الغابة. وأثناء النهار كنّا ننصرف إلى القراءة: ننكبّ على كتبنا كأننا نتوغّل في عوالمها، أختي و«ذهب مع الريح» وأنا و«كو فاديس؟»

كانت القراءة بالنسبة لنا بمثابة طوف الميدوزا. إذ ألفينا نفسينا وسط عالم من القسوة والصراع من أجل البقاء. لم تكن لنا مآخذ على الناس الذين يموتون من حولنا. وإنّما انتابنا الشعور بأننا معرّضتان حيال هذا القدر من الاحتضار، ولكي لا يأخذنا نهر الهلاك ذاك في مجراه، كنّا نتشبّث بكتبنا.

كانت الأخت ماري بول تطهّر جرحاً ملوّثاً. وكانت سكارليت أوهارا ترقص في الحفل مع ريت بتلر. كانت إمرأة تفقد الإحساس بيديها بسبب التآكل في أعصاب ساعديها. وكان بيتروني يشرح لنيرون أنّ مثل تلك الأبيات من الشعر لا تليق بنبوغه.

كانوا يدعوننا لتناول طعام الغداء المكوّن من هريسة العدس فيما الأخت ماري بول تروي لنا فظاعات شهدتها. وأذكر أن تلك هي الفترة التي اتخذت فيها قراراً حاسماً بأنني لن أنشئ في يوم من الأيام مشفىً لعلاج الجذام. واستحقّ التنويه هنا لأنني التزمتُ الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي.

42

لمناسبة بلوغي الثانية عشرة، أهدوني فيلاً: فيلاً حقيقياً. غير أنّني للأسف لم أستطع الاحتفاظ به لأكثر من أربع وعشرين ساعة.

لكن في غضون الأربع وعشرين ساعة تلك كان الفيل ملكي أنا. امتطيت ظهره بمساعدة الفيّال حيث قضيتُ طوال فترة عيد ميلادي. كان يسير، وأنا على ظهره، في شوارع المدينة فيما الناس يتطلّعون إليّ كملكة.

الحياة تبدو أفضل بالتأكيد من على ظهر فيل. فيها جلال، وعلوّ، وكنز من الإعجاب. ولو كان الأمر بيدي لمكثتُ هناك حتّى آخر الزمان.

لدى عودتنا إلى المعقل الحصين عند العصر، انضمّت إليّ جولييت على ظهر الفيل الرحب حاملة قالب الحلوى ذا الاثنتي عشرة شمعة. كان للفيّال والفيل حصّتهما من الحلوى ولكن الفيل لم يبدِ إقبالاً على قطعة الكعك. وجعلت تصبيرته، بين الوجبتين، برجاً من الموز التهمه كلّه، ثمّ أتبعه بأنبوب الريّ

في الحديقة الذي أبقاه داخل حلقه حتّى ارتوى ماءً (نحو أربعين دقيقة).

هديّة ميلادٍ رائعة كتلك بدت في عينيّ نذير شؤم. حاولت أن أفهم سبب تشاؤمي المفاجئ. والحقيقة أنني لم أكن سعيدة ببلوغي الثانية عشرة من عمري. فقد كان ذلك آخر عهدي بطفولتي.

43

ذات مساء نزلت عليّ رؤيا. مستلقية على الكنبة، كنت مُنصرفةً إلى قراءة قصّة لكوليت عنوانها «الشمع الأخضر». أذكر أنّ القصّة كانت، في معنى ما، خالية من الأحداث: حكاية فتاة تضع أختاماً على رسائل. ومع ذلك كان السرد يأسرني ولا أجد تفسيراً لذلك. ولدى فراغي من قراءة جملة بعينها لا تضيف إلى السياق شيئاً، وجدت نفسي أمام ظاهرةٍ غريبة: كأن سائلاً عصبياً سرى في عمودي الفقري، واقشعرّ بدني، وعلى الرغم من حرارة الجوّ التي فاقت الثلاثين درجة مئوية، سَرَتْ رَعْدةٌ برد في جسمي.

أذهلني ما جرى لي، فعاودت قراءة المقطع الذي تسبّب بذلك كلّه علّني أفهم. ولكنني لم أجد سوى كلام عن الشمع الذائب، عن مادته وملمسه ورائحته: أي لا شيء. إذاً ما السبب الحقيقي لما جرى لي؟

آخر الأمر عثرت على الإجابة. كانت العبارة جميلة: وما جرى، هو الجمال.

طبعاً كنت أذكر جيّداً مطوّلات المدرّسين، «حلّل أسلوب

هذا الكاتب»، «هذه القصيدة رائعة النظم، فعلى سبيل المثال، هناك حرف علّة يتردّد أربع مرّات في هذا البيت»، وإلخ. . إلخ. مثل ذاك التشريح محبط كسعي العاشق إلى سرد تفاصيل مفاتن حبيبته على مسامع آخرين. ليس لأن الجمال الأدبي غير موجود، بل ببساطة لأن تجربته غير قابلة للتبليغ، كمن يصفُ مفاتن امرأة لآخر لا يرى فيها موضوعاً لرغبته. فإمّا أن يكون الولَه شخصياً وإمّا الإقرار بالعجز عن تفسيره أمام آخرين.

كان ذلك الاكتشاف يضاهي في نظري ثورة اكتشافَ كوبرنيكُس العلمية. كانت القراءة، وشرب الكحول ، هي مشاغلُ يومي: لكن منذ ذلك اليوم أضحى شاغلي هو السعي وراء ذاك الجمال المطلق.

44

اصطحبتنا أمّي معها إلى شاطئ البحر. أنزلتنا طائرة مخلّعة تابعة للـ «بنغلادش بيمان» في «كوكسز بازار»، وهو منتجع صيفي يعود بناؤه إلى زمن الاستعمار الإنكليزي. أقمنا في ما كان، في زمن مضى، فندقاً فيكتورياً فخماً لم يبقَ منه سوى خِربةً مأهولة بصراصير عملاقة. غير أنّ المكان لم يفقد سحره بالكامل.

لم يكن في الـ «كوكسز بازار» سيّاحٌ. ذلك أن بنغلادش لم تكن، بالإجمال، مقصد السيّاح الراغبين في تمضية عطلهم. كان الفندق خالياً من النزلاء ما عدا زوجين إنكليزيين في الخامسة والسبعين من عمرهما يصرفان أوقاتهما منعزلين في غرفتهما يقرآن ويعاودان قراءة أعداداً قديمة جداً من مجلّة «التايمز»: وعند المساء ينزلان إلى «المطعم»، هي بفستان السهرة وهو بالطقم السموكنغ، متلفّتين حولهما بترفّعٍ وازدراء.

كنّا نقصد الشاطئ كلّ يوم. وكان خليج البنغال يتصفُ بجمالٍ قياميّ: إذ لم أر في حياتي بحراً بمثلِ هياجه. وما كنت

أقوى على مقاومة نداء أمواجه العملاقة، فألبثُ في المياه منذ الصباح حتّى المساء، لا أغادرها.

لـم يكـن أحد سواي يسبح. إذ تـلبث أمي وجـولـيـيت مستلقيتين على الرمال. أمّا جمهور الشاطئ المؤلّف أساساً من زمرة أولاد، فكان يصرف أوقاته بحثاً عن الأصداف التي يمكن بيعها. وكنت أدعو بعضهم إلى النزول معي إلى المياه، لكنّهم كانوا يتبسّمون رافضين دعوتي.

كانت تلك أيام وَجْد. إذ جعلتُ من مخاطبتي السماء ندّاً لندّ لدى خروجي سالمةً من رحى الأمواج، علّة حياتي. فكلّما ازدادت ضخامة حملتني إلى مسافة أبعد، ورفعتني إلى أعلى.

في الليل، مستلقيةً على سريري ذي القبّة البغدادية في الفندق الخَرِب، كنتُ أراقب الصراصير متسلّقةً غلالة الناموسيّة وفي عظامي بقيّةٌ من نشوة المدّ والجزر. وأمنيتي الوحيدة هي أن أعود إلى هناك.

ذات يوم، كنتُ قد لبثتُ في الماء ساعات، بعيداً عن الشاطئ، وإذا بأيادٍ كثيرة تمسك بقدمي. ولـم يكـن أحد بجواري. فلا بدّ أن أيدي البحر هي التي تشبّثت بي.

انتابني الفزع حتّى أفقدني النطق.

ثمّ راحت أيادي البحر تتلمّسُ جسمي كلّه وانتزعت عنه ثوب السباحة.

رحتُ أتخبّط مقاوِمةً زَخمَ اليأس، لكنّ أيادي البحر كانت قويّةً وكثيرة لا تُعَدّ.

لا أحد بجواري.

فرّجت أيدي البحر مابين ساقّي ودخَلَتْني.

كان ألمي عظيماً بحيث أعاد إليّ النطقَ. فصحتُ بأعلى صوتي.

سمعتني أمّي وهرعت إليّ مخوّضةً في الموج الهائج، صائحةً كالممسوسةِ كما تصيح أمّ. أفلتتني أيادي البحر.

حضنتني أمّي بين ذراعيها وحملتني إلى الشاطئ.

في البعيد، شاهدنا أربعة هنودٍ في العشرين من ذوي القامات النحيلة، العنيفة، خارجين من الماء، مولين الأدبار عَدْواً. لم يُعثَر على أي منهم فيما بعد. ومنذها لم تطأ قدمي مياهَ بحر.

أضحت الحياةُ أقلّ بهجةً.

لدى عودتنا إلى داكّا، اكتشفتُ أنني فقدتُ القدرة على استخدام جزء من دماغي. فقدتُ براعتي في معالجة الأرقام. حتّى أنني بتّ عاجزة عن إجراء عمليات حسابية بسيطة.

محلّ الجزء المفقود من دماغي حلّت طبقاتُ عَدَمٍ في رأسي. ولَبِثَت مقيمةً فيه.

45

لم أفقد شهيّتي للأشياء ولكنّي، في قرارة نفسي، بدأتُ أشعرُ بتصدُّعِ مراهقتي.

نطق صوت جديد في داخلي، وأضحى ذاك الصوت، وإن لم يطمس الأصوات السابقة، مُحَدِّثي المُعتَمَد وعوّدني على التفكير بصوتين. ولم يتوانَ في يوم من الأيام عن تنبيهي ضاحكاً إلى فظاعة الأشياء.

كانت الأخت ماري بول لا تكفّ، طوال الوقت، عن طلبِ معونةٍ بلجيكيّة لمشفاها. وكان أبي لا يكفّ عن الإلحاح بنقل طلبها إلى الوزارات المختصّة والمؤسسات الوقفيّة: حتّى بلّغ أخيراً بإيفاد راهبتين فلمنكيتين نذرتا نفسيهما للعمل في جالشاترا.

ذهب أبي لاستقبالهما في مطار داكّا؛ على أن يعرّج بهما على معقلنا الحصين لتناول طعام الغداء قبل توجّههما إلى الأدغال. لبثنا في انتظار وصولهما بكلّ الفضول الذي تثيره فينا، عادةً، التضحيات: فمن ذا الذي يتطوّع لترك حياة الأديرة الهانئة في منطقة الفلاندر لكي يهبَ حياته كلّها لجهنّم مشفى

الجذام البنغالي؟ ما السرّ الإنساني الكامن وراء تضحية مجنونة كهذه؟

البستانيّ هو الذي فتح لهما الباب. ذاك المسلم الرائع الذي لا يزن، بثيابه، أكثر من خمسين كيلوغراماً، بُهِتَ وسرت في بدنه رعدة. وجد صعوبةً في التنحّي جانباً مفسحاً في المجال، واسعاً وواسعاً جداً، لدخول كائنين ضخمين لا تتسع النظرةُ لهما إلاّ إذا حملَقتِ العين بما قيضَ لها من اتساع. كانت الأختان، وهما طبعاً ليستا شقيقتين، توأمين في البدانة.

كانت الأخت لِيبس والأخت لين في الخامسة والعشرين. غير أنّ الناظر إليهما قد ينسب إليهما السنّ التي يريد من دون أن يخطئ. وكان زيّهما الموحّد وحقيبتاهما الرهبانيّتان تزيد من أوجه الشبه بينهما وخاصّة انتفاخ وجهيهما اللذين ينضحان لطفاً وطيبة.

تظاهرت أمّي بأنها لم تلحظ الفرادة في مظهريهما وراحت تحادثهما بتهذيب بالغ. ولكن سرعان ما تبيّن لها أنّ الأخت ليبس والأخت لين لم يسبق لهما أن غادرتا قريتهما الواقعة في منطقة الفلاندر الغربية، وأنهما تتكلّمان بلهجة محليّة غير مفهومة. كان كلامهما أشبه بارتجاج غطاء قِدرٍ تُسلَقُ فيه البطاطا.

تبادل والداي نظرات استهجان وكأنهما يتساءلان في قرارتهما كيف يمكن للأخت ماري بول أن تستقبل الوافدتين الجديدتين. بعد الغداء، حشرنا الراهبتين في السيارة وتدبّرنا

لأنفسنا محلاً ضيّقاً بجوارهما. كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي أردت فيها الذهاب إلى جالشاترا بطيبة خاطر: إذ لم أشأ أن يفوتني مشهد اللقاء بين الراهبتين والأخت ماري بول. كان الصوت المستجدّ في داخلي يقول مهلّلاً: «انظري إلى حالهما، أقلّ اهتزازٍ تشهده السيّارة يثير زلزالاً من الشحم، فلا بدّ أن تدركي الآن أنّ وراء الرغبة في تكريس المرء حياته لفعل الخير هناك دائماً مشكلة.»

لدى وصولنا، جرى إخراج الأختين عنوةً من السيّارة. فراحتا تتطلّعان بافتتان إلى منظر الغابة الذي يبدو مختلفاً كلّ الاختلاف عن بيئتهما الطبيعيّة في منطقة الفلاندر. جاءت الأخت ماري بول كرئيسة جُند. حتّى أنها لم تلحظ حجم الراهبتين ولم تلبث أن رافقتهما إلى حيث أعدّت لهما الإقامة مردّدة على مسامعهما أنّ عملاً شاقاً ينتظرهما.

كانت معجزة حقاً. إذ اتضح أن الأختين ليبس ولين تتمتّعان بقدرات هائلة. لقد اضطلعتا بمهمّة تفوق قدرة البشر العاديين وأنقذتا مئات المجذومين. لم تغادرا جالشاترا إطلاقاً، ولم تفقدا من وزنهما غُراماً واحداً.

46

الهند، البلد المجاور، كانت أرض النعيم مقارنةً ببنغلادِش. فمن يقصد بومباي قادماً من داكّا، كمن يحلّ بنيويورك، ، ومن يقصد كلكوتا كمن يحلّ بنيو أورليانز. مع أنّ مظاهر البؤس فيها أوضح للعيان بسبب المذهب الهندوسي الغالب الذي يُفاقِمُ من حدّة التباينات. ففي بنغلادِش كان السائد آنذاك هو إسلامٌ معتدل، وضربٌ مذهل من النزوع إلى المساواة بين الناس.

كنّا وحدنا من بين البشر قاطبةً الذين يقصدون كلكوتا، المدينة الأقرب إلى الحدود، للتزوّد بالمؤن. وكان القليل المتوفّر في تلك المدينة الجهنّميّة، يبدو في أعيننا وفرةً ما بعدها وفرة.

تابعنا سيرنا صعوداً حتّى دارجيلينغ التي أذهلني جمالها النوستالجيّ. وقد طغت على مشاعرنا فتنة جبال الهملايا ونحن نحتسي الشاي متأمّلين قمّة الإفرست: فذهبنا إلى النيبال لقضاء أسبوع في ربوعها.

بلدٌ يقضي فيه المرء أوقاته متطلّعاً إلى السماء متأمّلاً القمم الشاهقة، هو بلدٌ لي. ولكن شأن الناس فيه هو شأن آخر.

إحدى الزيّارات خلّفت في نفسي أثراً لم أشهد مثيلاً له في أي مكان على هذا الكوكب: معبد الإلهة «فيفانت». هذه الإلهة هي طفلة يختارها البرهمانيون منذ ولادتها استناداً إلى ألف معيار فلكي وقَدَريّ واجتماعي و. . . ثمّ لا تلبث الطفلة أن ترقى إلى مصاف الألوهة، وهي بذلك لا بدّ أن تُدمَجَ بمادة المعبد نفسها. فتكبر الفتاة التي رُصِّعَ بها عرشٌ، إذ تُطعمُ أفخر المآكل وتنمو مبجلّةً من قبل الكاهنات، ولكن من دون أن تتعلّم المشي. فالحركة الوحيدة التي يُباح لها أن تؤدّيها هي التلويح بالأدوات الخاصّة بالشعائر. ولا يحقّ لأحدٍ، ما عدا كاهنات المعبد، أن يرفع أنظاره نحوها.

في يوم واحد من أيام السنة فقط، يوم التطواف، عندما تُحمَل الإلهة فيفانت في هودج عملاق ويُطافُ بها في أرجاء المدينة، يحتشد الناسُ لرؤيتها مهلّلين مبتهلين إلى الفتاة الصغيرة التي تحظى ذاك اليوم بفرصتها الوحيدة لرؤية العالم الحقيقي. في ذلك اليوم تُلتقط لها آلاف الصور الفوتوغرافية. وعند المساء يُعاد بها إلى المعبد الذي تغلق أبوابه بانتظار حلول العام التالي.

تبقى حالُ الفتاة على هذا المنوال حتّى بلوغها الاثنتي عشرة سنة، ويوم ذكرى ميلادها تفقد صفات ألوهتها ويطلب منها، من دون مقدّمات، أن تذهب لتتدبّر أمورها بعيداً عن المعبد.

هكذا تُطلَق في العراء فتاة بدينة عاجزة عن استخدام

ساقيها وما عادت أسرتها تتذكّرها. ولا يبدو أنّ أحداً يكترث لأمر هذا الكائن الذي اكتسب حديثاً صفته البشريّة.

خارج المعبد كنّا نرى، بمثابة نَذْرٍ، عدداً من صور الإلهة فيفانت الحالية معلّقةً على الباب بدبابيس، تمثُل فيها في أعمار مختلفة. كان أمراً شيّقاً أن نشهد تحوّل تلك الطفلة المحبّبة الطلعة، عاماً بعد عام، إلى ما يشبه الشرنقة المكتنزة بالشحم. كما نرى إلى جانبها صوراً قديمة لإلهات سابقات، مجموعة مرعبة من الفتيات الصغيرات المتنافساتِ على سَبَق البدانة واللواتي لم يعد لهنّ وجود عَقِبَ بلوغهنّ سنّ الثانية عشرة. ولا يسع الناظر إلى تلك الصور إلاّ أن يسأل في قرارة نفسه، أي جزء من حياتهنّ كان هو الأسوأ: قبل بلوغ السنّ القاتل أم بعده.

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما زرت معبد الإلهة فيفانت. لذلك لا أغالي حين أقول إنّ ما شهدته هناك هزَّ كياني. من حسن طالعي أنّ ما من شيء مشترك بين قَدَرَيْنا، أنا والفتاة النيبالية، غير أنّ شيئاً في صميم قلبي كان يُنبئني بأنني أفهم معاناتها جيّداً.

الغريب هو أنني طالما أدركتُ، منذ نعومة أظفاري، أنّ النموّ لن يكون إلاّ انحطاطاً، وأنّ هذا الانحطاط سيمرّ بمراحل مُرعبة. لقد وضعني معبد الإلهة فيفانت في مواجهة مباشرة مع الحقيقة التي أدركتها منذ البداية: وهي أن الفتيات يُطرَدنَ من ملكوتهنّ حين يبلغن الثانية عشرة من عمرهنّ.

47

في رأسي، كان التصدّعُ مستمرّاً. فالصوت الجديد كان يحول، لطغيانه، دون التلهّي بحكاياتٍ تختلقها نفسي لتسرّي عن نفسي. في السابق لم يكن سردي الداخليّ المتواصل، وهو مزيج من الواقع والتوهّم، لينقطع في لحظة من اللحظات: كان يصاحب حركاتي وأفكاري. غير أن حالي لم تعد هي حالي، فلا أهمّ باستئناف السياق السردّي حتّى ينبري مقاطعاً ذلك الصوت الذي لا يطيق التغيُّرَ المفاجئ في السياق.

كلّ شيء استحال شذرات، أحجيةَ بازِل تفقد في كلّ مرّة المزيد ثمّ المزيد من أجزائها المكوّنة. والدماغ الذي لم يكن، حتّى اللحظة، سوى آلة لفبركة التواصل من الفوضى، استحالَ مِسْحَقاً خلاّطاً.

48

بلغت الثالثة عشرة في بورما. كانت بورما أجمل بلدان العالم وكانَ أمراً لا يُطاقُ في نظري أن أعي ذلك في سنّ أجدني فيها أقلّ قدرة على الاستمتاع بما أتيح لي. لو كنت أصغر أو أكبر خمس سنوات لربّما استطعتُ عندها أن أجبَهَ ذاك المقدار من الروعة. ولكن في الثالثة عشرة لم أكن، ببساطة، قادرة على استيعابها.

من مؤلفات ميشيما قرأتُ «الجناح الذهبيّ». وكنتُ ذلك الراهب الذي حلّت عليه اللعنة فرأى الجمال بعين الكراهية. ما كان الجمال ليثير فيّ أي ضربٍ من ضروب الانفعال إلاّ إذا تخيّلتُ نفسي محطِّمةً له. وعلى الضدّ من سلوك الراهب مشعلِ الحرائق، ما كنتُ لأجرؤ يوماً على اقتراف الفعل: وكنتُ لأكتفي بحرائق ذهنيّة. تلك الحرائق المتخيّلة هي التي كانت تنبّهني إلى أوجه الروعة المحيطة بي.

ذهبنا بصحبة الأهل إلى باغان التي رأيتُ أنّها أروع من كيوتو؛ مدينة المعابد القديمة بدت في عينيّ أبهى بقاع الأرض قاطبة. أنهكني المنظر فانهرتُ. ولحسن الحظّ أنني علمتُ فيما

بعد أنّ أحد عناصر الروعة في ذلك المنظر القمريّ يكمن في أنّه تعرّض لحريق، وهو الأمر الذي جعله مقبولاً في عينيّ. وعندما كانت المعابد الباذخة تثير في نفسي مشاعر الضيق حتّى الاختناق، كان ذهني يُشعلُ فيها الحرائق القديمة فأشعر فجأة بالطمأنينة.

كنتُ أشتبه بكون جولييت تشاطرني اضطرابي.

- هذا آية في الروعة، كانت تقول.

قد لا يكون مثل هذا القول، في حدّ ذاته، سوى طريقة في التعبير تناقلتها الأجيال عبر العصور، لكنّ مؤدّاها، إذا نطقت بها أختي أو نطقتُ بها أنا، يغدو حرفياً لا يحيد عن المعنى المقصود: ومعناها أنّ الروعة بمثل ذاك المقدار يعذّبنا. مثل ذاك الجمال يستدعي التضحية، ولم نكن نملك سوى نفسينا لكي نضحّي بهما - وإلاّ كان الجمال مقيتاً. «إمّا هو، وإمّا أنا»، تلك كانت المسألة، مسألة دفاع مشروعٍ عن النفس. ولن أقول هنا إنّ جولييت كانت هي أيضاً تقرأ «الجَناح الذهبيّ» بشغفٍ، وصمت.

49

تشوّه جسمي. تضخّمَ اثني عشر سنتمتراً في غضون سنة واحدة. جاءت العلّة من نهديّ، المضحكين لصغرهما، غير أنهما كانا كثيرين عليّ: حاولت أن أحرقهما بقدّاحة على غرار الأمازونيات اللواتي كنّ يحرقن أحد الثديين لكي يتمكّنّ من رمي السهام بالقوس؛ غير أني لم أفلح إلاّ بإيذاء نفسي. لذلك أجّلتُ البتّ بهذه المسألة إلى وقت لاحق، واثقةً من إيجاد حلّ عاجلاً أو آجلاً.

أعادني ذاك النموّ المضطرب إلى حالة الخمول التي عانيت منها في سنوات طفولتي الأولى. كان الشعور بالتعب لا يفارق جسمي، وانتقالي سيراً إلى البار في حجرة الاستقبال مشقّةً أكاد لا أقوى عليها: وحدها كأس الويسكي المنشود كانت تمدّني بالقوّة لكي أفعل. وكنتُ أشرب لكي أنسى أنني بلغت الثالثة عشرة.

كنتُ ضخمة ودميمة، وأضع طقماً لتقويم الأسنان. رئيس بنغلادِش المثير للإعجاب، ضياء الرحمن، اغتيل. إذ كان

يكفي أن أغادر بلداً لكي يشهد حدثاً بارزاً. كان العالم يثير فيّ القرف.

رزحت بنغلادِش تحت حكم الديكتاتورية العسكريّة. ورزحتُ تحت طغيان جسدي. بورما، التي صارت أشبه بألبانيا آسيوية، تبنّت سياسة الاكتفاء الذاتي. فأغلقت حدودي.

حزن أبي كثيراً لوفاة ضياء الرحمن. أمّا أمّي فكانت شديدة التأثّر من حال الانغلاق التي ألمّت بابنتيها وبخاصّة الأخيرة التي لازمت الكنبة لا تغادرها على الإطلاق.

- سوف أحضرُ رافعةً، كانت تقول عندما ترى جسدي الضخم متهالكاً فوق التكايا.

كانت تصحبنا عنوةً إلى النادي الإنكليزي، متذرّعةً بأن فيه حوض سباحة، وهو الأمر الذي لا أكترث له البتّة. هناك واجهت مأساةً فظيعة: فتى إنكليزيّ في الخامسة عشرة من عمره، نحيلٌ رقيق الحاشية، قفز إلى الماء أمام عينيّ فشعرتُ بشيء يتمزّق في داخلي. يا للهول: شعرتُ بأنني أشتهي ذاك الفتى. تلك هي المأساة. إذ اتضح لي أن جسدي خائن.

طبعاً كان الإنكليزي فتى ذا شعرٍ طويل أسود، شاحب البشرة، قرمزيّ الشفتين، رقيق الحاشية، غير أنّ هذا كلّه لا يبدّل شيئاً من حقيقة أنه صبيّ. أقصى درجات العار. رحتُ ألاحقه أينما ذهب علّه يلمحني. لم يلمحني. وكنتُ أعلم جيّداً لماذا: لم أكن ممّن يُلمَحون. طبعاً كان العلاج الناجع لوضعٍ مقيت كهذا هو أن أنصرف كلياً إلى القراءة. قرأت «فيدرا»

بحماسة لا توصف: إذ كنتُ أنا فيدرا وكان هو هيبوليت. وشعر راسين كأنّه نُظِمَ خصّيصاً لمن هو مثلي. ومع ذلك لم أجد في الأمر ما يضمّد كرامتي الجريحة.

قرّرت ألاّ أفاخر بالأمر.

في قرارة عدمي الهرموني، لم يكن سيّداً سوى الفوضى. أثناء الليل كنت أستيقظ لكي أذهب إلى المطبخ لمنازلة ثمار الأناناس: لقد لاحظت أنّ الإفراط في أكل هذه الثمار يسبّب نزيفاً في لثّتي وكنت في أمسّ الحاجة إلى تلك المعمعة. أستلّ سكيناً ضخماً وأمسك بثمرة الأناناس من جديلتها وأقشّرها بضربات قليلة من النصل الحاد وألتهمها حتّى اللبّ. فإذا لم تنزف لثّتي أعدت الكرّة بثمرة أخرى: إلى أن تحين اللحظة المثيرة التي أرى فيها اللبّ الأصفر مشبعاً بدمي الأحمر.

كانت تلك الرؤية تثير فيّ جنون الرغبات. ألتهم الأحمر من لبّ الذهب. طعم الدماء في الأناناس يُرعبني حتّى النشوة. فأضاعف حجم القضمة منه لكي يشتدّ النزيف. مبارزة بيني وبين الثمرة.

لم يكن انتصاري ممكناً إلاّ إذا تقبّلتُ فكرة أن أنزف دمي حتّى القطرة الأخيرة. لذلك كنت أوقف المنازلة الفريدة حالما أشعر بأنّ أسناني ستسقط من فمي. وتبقى طاولة المطبخ كحلبةٍ لم يبق عليها سوى الأشلاء.

إلياذة فاكهةٍ كانت، غير أنّها لطالما رطّبت جمر اهتياجي.

50

لفرط ما توقّعت حلول الكارثة ولم تحدث، بدأت أشعر بأنها أبداً لن تحدث. فلا شيء يعوَّل عليه في هذا المجال، لا الأحداث الراهنة - إذ لم تحدث الانقلابات العسكرية في بلد إلاّ عَقِبَ مغادرتي له - ولا الميتافزيقا - إذ مهما أمعنت النظر في السماء وفي الأرض لم تلح لي يوماً علامات القيامة.

كنت جائعةً لإعصار مدمّر، وكذلك جولييت. لم نتحدّث يوماً بهذا الشأن، إذ بلغنا تلك المرحلة التي طالما أقمنا عليها: لم تعد بنا حاجة إلى الكلام. كانت كلّ منا تعلم ما تعيشه الأخرى: الشيء نفسه.

لم تخبُ شهوتي للفتى الإنكليزي، ولم يكفّ جسدي عن التضخّم، كما لم يكفّ الصوت الداخلي عن كرهي، أمّا الله فاستمرّ بمعاقبتي. وحيال تلك الاعتداءات قرّرت أن أواجه بقدر من البطولة لم تشهدها الأزمنة من قبل.

في بنغلادِش كانوا قد علّموني بأن الجوع ألمٌ يزول بسرعة: بعد ذلك يعاني المرء من آثاره لا من عذابه. واستناداً إلى تلك المعلومة رسمتُ الآتي: في الخامس من شهر كانون

الثاني 1981، يوم عيد القديسة آميلي، سأتوقّف عن الأكل. غير أنّ مثل هذا البذل للذات يبقى مصحوباً بشرط: إذ نصّ القانون أيضاً أنه بدءاً بذلك التاريخ أيضاً لن أنسى أي انفعال ينتابني في حياتي.

طبعاً من حقّ المرء ألاّ يستذكر التفاصيل الدقيقة للكون، كمارينيان 1515، ومربّع وتر المثلّث، والنشيد الوطني الأميركي وتصنيف العناصر الكيميائية. ولكن ألاّ يستذكر ما خلّف أثراً فيه، ولو قليلاً، فهذه جريمة يرتكبها كثير من الناس حولي، مما كان يشعرني باستياء ذهنيّ وجسمانيّ في وقتٍ معاً.

في ليل 5 – 6 كانون الثاني 1981، كنتُ أشاهد العرض الداخليّ الأوّل لانفعالات اليوم: كانت جميعها مكوّنةً، أساساً، من الجوع. ومنذ ذلك الحين وأنا في كلّ ليلة استعرض بسرعة الضوء شريط الانفعالات التي انتابتني بدءاً بالخامس من شهر كانون الثاني 1981.

أكان ذلك لأنني بلغت الثالثة عشرة والنصف، السنّ التي تبدو فيها الاحتياجات الغذائيّة مفرطة في جنونها؟ كان موت الجوع بطيئاً في جوف معدتي. ودام احتضاره شهرين كانا لي بمثابة دهور من العذاب. أمّا ذاكرة الجوع فكان الخلاص منها أقلّ مشقّة.

عقِب شهرين من الألم، حدثت المعجزة أخيراً: اختفى

الجوع وحلّت محلّه بهجةٌ متدفّقة. كنت قد قتلتُ جسدي. وعشتُ جريمتي تلك كنصرٍ مبين.

جولييت أضحت نحيلة، أمّا أنا فأصبحتُ هزيلةً بارزة العظام. وكان من نتائج انقطاعي المرضي عن الأكل أنني حُبيتُ بنعمة: إذ صَمَتَ الصوتُ الجائع في داخلي؛ وعاد صدري مسطّحاً كما اشتهيتُ أن يكون، وما عدت أبدي أي رغبة حيال الفتى الإنكليزيّ؛ ولكي أكون صادقة مع نفسي، أعترف بأنني فقدت الشعور بأي شيء.

نمط الحياة الزهدي المتقشّف ذاك - لا ما يغتذي به الذهن والجسد - كان يبقيني في عصر جليديّ حيث المشاعر لا تنمو ولا تشتدّ. وكان الأمر أشبه باستراحة المحارب: ذلك أنني ما عدت أكره نفسي.

51

بما أنّه لم يبقَ غذاء، صمّمتُ أن ألتهمَ جميع الكلمات: فقرأت القاموس برمّته. كنت مصرّةً على عدمِ إغفال أي مفردة: إذ كيف لي أن أعرف مسبقاً ما هي المفردات التي تستحقّ عناء القراءة وما هي تلك التي لا تستحقّ؟

في السابق كنتُ أستمتع بتنقّلي المزاجي بين حروف المداخلِ كما يفعل عادةً مستخدمو القواميس. غير أنّ ما كنتُ راغبةً فيه حقّاً في تلك الحقبة هو أن أقرأ مادة القاموس كاملةً وبحسب ترتيبها الأبجديّ الصارم، بحيث لا يفوتني منه حرف. وكانت النتيجة مذهلة.

الحقّ أنّ انكبابي ذاك نبّهني إلى ظلامةٍ موسوعيّة: إذ كانت بعض المفردات أدعى للاهتمام من جاراتها. ولعلّ مداخل حرف الألف هي أشدّها فتنةً: فهل مردّ ذلك إلى السواد الذي لفتَ انتباه رامبو؟ أم مردّه ببساطة بالغة إلى ما تختزنه من السلطان المحيِّر، من طاقةِ المُستَهَلّ؟

اليوم أرتابُ بغرضٍ إضافيّ لم أقرّ به لنفسي في ذلك

الوقت: وهو رغبتي في الحدّ من تفاقم ذلك التصدّع الذي أَلَمَّ بدماغي في تلك الفترة. فكلمّا ازداد نحولي ازداد ذاك التلاشي لما كان لي بمثابة روح.

مَنْ يصرّ على ذكر الثراء الروحيّ للزهّادِ يستحقّ أن يُبتلى بفقدان الشهيّة المرضي. وما من مدرسةٍ فُضلى للنزوع المادي الصارم والصريح إلاّ الصوم المتمادي. وإذا تجاوز المرء حدّاً معيّناً على هذا الصعيد، شعرَ بأنّ نفسَه تضمُر حتّى الزوال.

مثل هذا البؤس الروحيّ الذي يُبتلى به المحرومُ من الغذاء مؤلمٌ بحيث يثير فيه ردود فعلٍ بطولية. هي مِزاجٌ غريبٌ من الكبرياء وغريزة البقاء. وفي حالتي أنا، كان هذا المزاج يُتَرَجمُ خططاً ثقافية فلكيّة الحجم والمقدار، من قبيل قراءة القاموس من ألفه إلى يائه.

لعلّه من الخطأ القول هنا إنّ مثل هذا السعي ليس في آخر المطاف سوى عقل انعدام الشهيّة المرضيّ. وقد يكون حسناً إدراك تلك الحقيقة التي لا يرقى إليها الشكّ: وهي أنّ الزهد لا يُغني الروح. وما من فضيلةٍ ينطوي عليها الحرمان.

52

اصطحبنا والدانا لزيارة جبل بوبّا: وجبل بوبّا كناية عن دير بوذيّ قائم على قمّة جبلٍ هو من الوعورة وشدّة التحدّر بحيث يبدو لاواقعياً، أشبه برؤيا مهلوِس.

كنت في الرابعة عشرة، ولم يكن مظهري منفّراً إذا ما كُسيَ بالملابس. تفرّس الرهبان في وجهي وقالوا لأبي إنهم راغبون في شرائي. فسألتهم أمّي لماذا.

- لأنّ لها سحنة دمية من الخزف الصينيّ، أجابوها قائلين.

وإذ راق لهم الأمر تظاهر والداي أنهما مهتمّان بالعرض وراحا يفاصِلان في السعر.

لم أتمكّن من التعاطي مع الأمر برمّته على أنّه دعابة مسليّة. ربّما بسبب الحشمة المرضيّة المصاحبة لتلك السنّ بالذات.

كان وزني أربعين كيلوغراماً. وكنت أعلم جيّداً أن نحولي سيزداد وأني سأبلغ مرحلةً لن يعرض فيها راهبٌ بوذيّ شرائي ولو على سبيل المزاح. تلك الخاطرة أشعرتني بارتياح.

53

قرأت «شرترية بارما» للمرّة الأولى. سحرني هذا النصّ، على غرار القصص التي تدور حول السجون أو المحابس الزهديّة: وحده الحبس كان يجعل الحبّ ممكناً. ولا أدري لماذا كنت أشعر أنّ تلك الكتب هي التي تخاطب مشاعري.

فضيلة أخرى كان الكتاب يتمتّع بها وهي مستوى التحضّر البارز فيه. كان انعدام الشهيّة المرضي يعزلني عن الحضارة، ما كان يؤلمني جداً. كنت أقرأ بشغف أيضاً أدب المعتقلات، «الموت هو مهنتي»، و«لو كان إنساناً». واكتشفت بفضل بريمو ليفي عبارة دانتي الآتية: «لم يُخلق البشر لكي يحيوا كالبهائم.» وأنا كنت أحيا كبهيمة.

فيما خلا لحظات الصفاء النادرة تلك التي تكشف لي خسّة المرض، كنتُ، بالإجمال، أفاخر به. لا بل كنت أستمدّ بعضَ الزهو من لاإنسانية ظروف عيشيّ.

كنت أردّد في سرّي أنّه من المستحسن أن أسعى ضدّ

ذاتي، وأنّ هذا القدر من العدوان حيال ذاتي قد يكون هو خلاصي. وأستذكر صيفَ بلوغي الثالثة عشرة، عندما كنتُ شرنقةً ألوذ بجدراني. ها أنذا أمتنع عن الطعام، وأغدو نشاطاً فيزيائياً وذهنياً بحتاً. ها قد فزتُ على الجوع وبتّ أستمتع بثمالة الخواء.

والحقيقة أنني كنتُ في ذروة الجوع: كنت جائعة إلى الجوع.

54

لاوس كان بلد العَدَم. لا لأنّ لا شيء يحدث فيه بل لأنّ السيطرة الفيتنامية عليه كانت تمتصّ جميع الصدمات بحيث تفقده أي بادرة حياة.

لم أرَ طغياناً أشدّ من ذاك الطغيان. لم تكن السلطة تختطف الكائنات إلاّ ليلاً. يستيقظ المرء عند الصباح فلا يجد جاره المفقود لأسبابٍ عجيبة: إمّا لأنه تحدّث إلى أجنبيّ أو لأنه تجرّأ على الاستماع إلى الموسيقى.

غير أن هذا الاستعمار المُهلِك لم يحل دون كون اللاوسيين أرهف شعوب الأرض قاطبة: هم المحكومون بالعَدَم القاتل كانوا يسأمون بأناقة ورهافة حسّ.

لم يكن لانتقالنا الدائم من بلدٍ إلى بلدٍ أي تأثير على حالتي: فمرض انعدام الشهيّة قابلٌ لأن يصحب حامله أينما حلّ.

في الخامسة عشرة من عمري، كان وزني اثنين وثلاثين كيلوغراماً، في حين بلغ طول قامتي متراً وسبعين. وكان

شعري يتساقط بكثافة. أحبس نفسي في الحمّام لأتأمّل عربي: فأجدني. وكان الأمر يفتنني.

في رأسي صوتٌ يعلّق على انعكاس صورتي في المرآة: «سوف تموتين قريباً». ما يشعرني بنشوة غريبة.

كان والداي يبديان استياءهما الدائم مما آلت إليه حالي. وكنتُ دائماً أعجَبُ لعجزهم عن مشاطرتي بهجتي. لقد شفاني المرض من إدمان الكحول. أمّي تحرص على معرفة وزني باستمرار. وكنت دائماً أخدعها بثمانية كليوغرامات إذ أعمد خلسة إلى دسّ أثقالٍ من المعدن تحت بلوزتي، وإلى مزاولة عذابي العتيد قبل مراسم الوَزنةِ بعشرين دقيقة: إذ أبتلع ثلاثة لترات من الماء في غضون ربع ساعة. ولكم أن تتخيّلوا مقدار الألم الذي كان ينتابني.

لكنّ الأمر كان يستحق المشقّة والألم إذ عندها كان يحلو لي أن أرى نفسي في المرآة: هيكلاً عظمياً منتفخَ البطن. كان انعكاس صورتي يبدو لي مُرعباً فتغمر البهجة كياني. لم أكن آسفة على شيء سوى فقداني شراهتي للمياه: فشرب الماء كان يعينني على استكمال خدعتي.

يتكوّن الدماغ أساساً من الدهن. أي أنّ أنبل خواطر البشر تولَد مغمّسةً بالدهن. ولكي لا أفقد مُخّي، انكببتُ بدأب وحماسة على إعادة ترجمة «الإلياذة» و«الأوديسّة». لذلك أجدني مَدينة لهوميرُس بما تبقّى لي من خلايا دماغيّة.

55

عندما بلغت الخامسة عشرة، شعرتُ، ذات ليلة، بأنّ الحياة تفارقني. وجمدت أوصالي لشدّة ما شعرت بالبرد.

رأسي تقبّل الأمر.

ولكن في الأثناء حدث أمرٌ عجيب: لقد تمرّد جسمي على رأسي. ورفض الموت.

على الرغم من صياح رأسي المتواصل، نهض جسمي قاصداً المطبخ وأكل.

أكل شارقاً بدموعه لأنّ رأسي كان يتألّم كثيراً لصنيع جسمي.

راح يأكل كلّ يوم. وبما أنّه كان فاقد الرغبة في أي شيء، تضافرت مفاعيل أوجاعه الجسديّة وأوجاعه الذهنية: فالطعام كان هو الغريب، كان هو الشرّ. كلمة «شيطان» تعني «ما يفرّق». والأكل كان هو الشيطان الذي يفرّق ما بين جسمي ورأسي.

لم أمُتْ. كنتُ أتمنّى أن أموت: فآلام الشفاء مبرحة لا يطيقها كائن حيّ. أمّا صوت الكراهية الذي خدّره انعدام شهيّتي

المرضيّ فقد استيقظ فجأة وشتمني مُقذِعاً كما لم يفعل من قبل. وثابر على المنوال ذاته كلّ يوم.

استعاد جسمي مظهراً عادياً. كرهتُه قدر ما يُتاح للمرء أن يكره.

قرأت «المسخ» لكافكا محملقة في السطور أكاد لا أصدّق عينيّ: كانت قصّتي أنا. الكائن المتحوّل إلى دابّةٍ مثيراً الهلَع في روع المحيطين به وفي روعِه هو إذ يغدو جسمُهُ هو المجهول، هو العدوّ.

على غرار غريغوار سامسا، لازمت غرفتي لا أفارقها. كان أخشى ما أخشاه نفور الناس منّي وتقزّزهم، وأخشى أن يسحقوني بأقدامهم. كنتُ أحيا في الاستيهام الأشدّ فظاعة: فقد أصبح لي جسم اعتياديّ لفتاة في السادسة عشرة، ما يعني أنّ مشاهدته ليست هي أفظع المشاهدات في الكون؛ ولكن في قرارة نفسي كنت أشعر بأنني صرصور عملاق، فلا أقوى لا على الخلاص منه ولا على مغادرة محبسي.

بتّ لا أدري في أي بلد أقيم. أقيم في الغرفة التي تشاطرني أختي سكناها. هي لا تلبث فيها إلاّ لساعات النوم. أمّا أنا فأشغلها بدوامٍ كامل.

لازمتُ سريري لساعاتٍ أطول بكثير مما كنت لأفعل لو ألمّ بي مرض. فعقِبَ سنوات من البطالة القسريّة، كفّت أعضاء

جهازي الهضمي جميعها عن تقبّل أي شيء. فإذا أكلت شيئاً، ما عدا الأرزّ والخضار المسلوقة، تلوّيتُ وجعاً.

كانت الأوقات الطيّبة الوحيدة التي قضيتها في ذلك العام هي الأوقات التي كنت أعاني فيها من الحمّى. وما كانت الحمّى تصيبني إلاّ أياماً قليلة: يومين أو ثلاثة في الشهر الواحد، ولكنّها أيّام راحتي الوحيدة! ففي أثنائها كان يكتنف ذهني ضباب الهذيانات المنجّية. الصور نفسها ماثلة على الدوام في رأسي: أنا شكلٌ مخروطيّ هائل الحجم مختالٌ على شفير خواء سديميّ، ومهمّتي أن أستحيل شكلاً أسطوانياً.

كنت أركّز تفكيري وانتباهي بقدر ما يُتاح لمصاب بحمّى أن يركّز لكي أغدو الأنبوب المُرتجى. وكان إحساسي في بعض الأحيان بأنني أنجزت مهمّتي الهندسيّة يُشعرني بفخرٍ عظيم. فأستيقظ مبلّلة بالعرق وألبث لهنيهات مستمتعةً ببعض السكينة.

سُكنى الغرفة أتاحت لي أن أقرأ أكثر من أي وقت مضى.

قرأت للمرّة الأولى الرواية التي سأعاود فيما بعد قراءتها مراراً ومراراً - ما يزيد على المائة مرّة - وهي رواية «الصبايا» لمونترلان. تلك القراءة المبهجة رسّخت قناعتي بأنّ للمرء مطلق الحق في أن يصبح ما شاءَ، ما عدا أن يصبح امرأة. وكنت على النهج السليم بما أنني غدوت صرصوراً.

نادرة كانت تلك الأوقات التي أرغم نفسي فيها على

الخروج من الغرفة. وعندما أفعل أشعر بأنني فقدت الحسّ السليم في التعاطي مع الناس. فأسترسل في إلقاء محاضرات مطوّلة حول عدم وجود النفس. وأخاطبُ وجيهاً من وجهاء القوم بقولي: «يا أخي الكريم...».

كانت ألعاب القمار، كما الموسيقى، محظورة في لاوس. وكان على هواة النوعَين من السلوى أن يختلوا في أماكن مغلقة لمزاولتها. كان وجود ورق اللعب محرّماً لأن أي لعبة بواسطته تعتبر مقامرة: لذلك غدت لعبة الهويست البريئة أشبه بنشاطٍ استثنائي يضفي عليها التحريم هالةً وعلى لاعبيها في الخفاء حظوة.

كنت أجلس لساعات طويلة وأنا أراقب اللاعبين. وذات يوم فاجأت أحدهم متلبّساً بالغشّ. فضحته مؤنبةً بأعلى صوتي. أنكر الأمر. عاجلته بلكمة من قبضتي على عينه. فسارع أبي إلى زجري مؤنباً طالباً منّي العودة إلى غرفتي.

بما أنني اخترتُ ملازمة فراشي قدراً لي ومصيراً، غدوتُ خبيرة في أنواع الطير ومسارات طيرانها: فمن سريري، حيث ألبث مستلقيةً، كنتُ أراقب الطيور عبر نافذتي محلّقة في الفضاء. غير أنني لم أكن أرى في تحليق الطير إلاّ تحليق الطير لأنّ كل تأويل هو اختزال وافتئات على المعنى. كان محض جنون، ولكن لم يكن متاحاً لي أي جنون آخر.

كانت الطيور غالباً ما تحلّق بعيداً فلا أميّز أنواعها. إذ تستحيلُ في ناظري سطوراً من خطٍّ عربيّ مدوّمةً في الأثير.

كم وددتُ أن أكون شبيهةً بعربسات مدوّمة في الأثير: شيئاً غير محدّد، طليقاً يستطيع التحليق حيثما يشاء. لكنّني كنت أسيرة، حبيسة جسم مُعادٍ وعقلٍ مهجوس بدمارِ ذاته.

يبدو أن غالبية الإرهابيين الدوليين يتمّ تجنيدهم من صفوف أبناء الدبلوماسيين. أمرٌ كهذا ليس مفاجئاً في نظري.

56

في السابعة عشرة من عمري انتسبتُ إلى الجامعة الحرّة في بروكسِل.

كانت مدينة حافلاتٍ كهربائيّة تغادر مرائبها عند الخامسة والنصف صباحاً مطلقةً صريرها الكئيب، ظنّاً منها أنّها تغادرُ إلى اللامنتهى.

من بين جميع البلدان التي عشتُ فيها، كانت بلجيكا هي البلد الذي فهمته أقلّ من سواه. وقد يكون، في آخر الأمر، هذا هو معنى انتمائك إلى مكان ما: ألاّ تدرك بالضبط ما كُنه هذا المكان.

ولا ريب في أنّ هذا ما دفعني إلى الشروع في الكتابة. ذلك أن عدم الفهم هو مصدر للكتابة لا ينضب. وكانت رواياتي تسعى إلى صياغة عدم الفهم المتفاقم في شكلٍ ما.

فقدان الشهيّة المرضيّ كان بالنسبة لي درساً في علم التشريح. إذ تمكّنت من خلاله أن أعرف جيّداً ذاك الجسد الذي فكّكته. وبات من واجبي أن أعاود تركيبه من جديد.

والغريب أنّ الكتابة أسهمت في معاودة تركيبه. كانت في البداية فعلاً جسمانياً بحتاً: فثمّة عوائق ينبغي لي تخطّيها لكي أستخرجَ شيئاً ما منّي.

وقد شكّل ذلك الجهد نوعاً من النسيج الذي صار هو جسدي.

57

لحسن طالعي أنني في حياتي شاءت الأقدار أن تكون لي أخت. نجحت في اختبارات قيادة السيّارات، وصار بإمكانها أن تصحبني بسيّارتها في أحيان كثيرة لكي نرى البحر. تلك كانت أيام سعادتنا الحقّة.

كانت تقود سيّارتها حتّى نبلغ «كوك»، بين «وندوين» و«أوستاند». وهناك نستلقي بين الكثبان نتحدّث عن أشياء لا وجود لها. ونسير مسافاتٍ على طول الشاطئ.

جولييت كانت هي وجودي، كما كنت أنا وجودها. بعض الأنسباء كان يرى أننا مقرّبتان أكثر مما ينبغي ويتعيّن التفريق بيننا: طبعاً بعد ذلك تعمّدنا أن نبتعد نهائياً عن هذا البعض.

ذات يوم اعترفتُ لها بأنني أكتب. كانت هي قد توقّفت عن الكتابة عندما بلغت السادسة عشرة. وعلى نحوٍ ما تولّد لديّ الانطباع بأنني حملتُ، بعدها، الشعلة. وقلت لها إنني لن أطلع، في يوم من الأيام، أحداً آخر على مخطوطتي.

- أنا لست أحداً آخر، قالت.

قرأت إذاً قصّة البيضة التي كتبتها. ولم أكن أتوقّع استحساناً منها.

أعادتها إليّ معلّقةً بعبارة وحيدة:

- لها طابع السيرة الذاتية.

بالفعل، ففي داخل البيضة العملاقة، لم يصمد المُخُّ أمام انقلابٍ قام به شبّانٌ متمرّدون. فانتشر في البياضِ وما كان من تلك الرؤيا الليسيتينيّة إلاّ أن أدّت إلى انفجار القشرة. وإذ ذاك استحالت البيضة قرصاً عملاقاً من العجّة الفضائيّة لن تكفّ عن الدوران في الخواء الكونيّ حتّى نهاية الأزمان.

بلى، قد لا تكون السيرة الذاتية شيئاً غير هذا.

58

عندما بلغت الحادية والعشرين، وفور نيلي الإجازة في الفلسفة، ابتعتُ تذكرةَ ذهابٍ إلى طوكيو.

كانت خطوة لا تخلو من القسوة: أن أغادر جولييت التي بقيت في بروكسِل. قبل ذلك لم نفترق أنا وأختي ولو يوماً واحداً. سألتني جولييت قائلةً: «كيف تستطيعين أن تغادري؟» كانت جريمة، بالفعل، وكنتُ أدرك ذلك. ومع ذلك شعرتُ أن من واجبي اقتراف تلك الجريمة.

ضممتها إلى صدري بقوّة وغادرت. أمّا هي فتلجلج صدرها بتنهيدة متمادية ما زالت إلى اليوم تتردّد في رأسي. كم هي هائلةٌ طاقتنا على تحمّل العذاب.

طوكيو: لم تكن اليابان التي عرفتها ومع ذلك كانت هي اليابان. محتجبة بين شبكات الطرقات السريعة العملاقة، كانت الشوارع الضيّقة تؤوي بلدي، أهزوجة بائع البطاطا الحلوة، والعجائز المرتديات الكيمونو، الدكاكين، ضجيج القطار، روائح الحساء المنزليّ، صياح الأولاد: عدتُ مجدّداً إليها.

كنّا في شهر كانون الثاني سنة 1989. وكان البرد قارساً والسماء مقيمة على زرقتها العميقة غير الحائلة. وعلى الرغمِ من أنني توقّفت عن التحدّث باليابانية منذ سنّ الخامسة، واعتقادي أنني نسيتها تماماً، عاودتني الكلماتُ اليابانية زرافاتٍ مُردّدةً وقع معانيها داخل رأسي.

كنت أحيا إحدى مغامرات الذاكرة الرائعة. أنا في الحادية والعشرين وفي الوقت نفسه أنا في الخامسةِ لم أزل. وحتّى لو تغيّبتُ خمسين عاماً لما زادَ انقضاؤها في حسابٍ في عمري أكثر من بضعة شهور.

لَبِثتُ الوقتَ كلَّه مذهولةً مشوّشة الذهن. وعندما يطلقُ حارسُ المفترقاتِ رنين جرسه، دينغ-دينغ-دينغ، محذّراً من اقتراب قطار، يتلاشى وجودي كلّه، كأنني لم أبرح شوكوغاوا، فتسري القشعريرة في بدني وتنهمر دموعي.

بمضيّ ستة أيام على عودتي إلى ذلك البلد الذي لم يكن بوسعه إلاّ أن يكون بلدي، التقيتُ شاباً من سكّان طوكيو دعاني إلى متحف وإلى مطعم وإلى حفل موسيقى وإلى غرفته، ثمّ عرّفني على أهله.

لم يسبق لي أن عايشتُ تجربةً مماثلة: أن أحظى من صبيّ بمعاملة كائن بشريّ.

فضلاً عن ذلك، كان فتىً ساحراً، لطيفاً، مرهفاً، رفيع

الذوق ويتميّز بتهذيب لافت: أي النقيض الفعلي لكل العلاقات التي كنت قد أقمتها في بروكسِل.

يُدعى الشاب رينري، ومعناه باليابانية: أخلاق، وكان هو مثال الأخلاق. رينري اسمٌ نادرٌ هناك على غرار بريتيكْسْتا أو إيلوثير في بلادنا، لكنّ أسماء العلم اليابانية لا تأنف من الصيغ النادرة.

كان الشابُ وريث عائلة ثريّة، ووالده أكبر تجار المجوهرات اليابانيين.

وبانتظار تولّيه مسؤولية أعمال الأسرة، كان رينري طالباً جامعياً مثلي أنا، أو مثل أي طالب جامعي في اليابان ليس منتسباً إلى إحدى الجامعات الإحدى عشرة المرموقة: أي طالباً غير مواظب وغير منتظم التحصيل.

كان يدرس اللغة الفرنسيّة وآدابها: ولقّنته بعض أساليب الإنشاء وبناء الجملة.

وكنتُ أدرس اللغة اليابانية الخاصّة بعالم الأعمال: فعلّمني الكثير الكثير من مفرداتها.

وبذريعة تعلّم اللغات، كانت علاقتنا أشبه بالمغامرة المثيرة.

كان رينري يقود سيّارة شبيهة بتلك التي يقودها رجال الياكوزا، بيضاء، برّاقة مثل أسنانه.

كنت أسأله:

- إلى أين نذهب؟

يجيبُ قائلاً:

- سوف ترين.

وإذا بنا عند حلول المساء على مشارف هيروشيما، أو على عبّارة تحملنا إلى جزيرة سادو.

كان يفتح القاموس الياباني الفرنسي، مقلّباً صفحاته، باحثاً عن مفردة، ثمّ يقول فجأة:

- وجدتها: أنتِ جوهرة صافية (كوينتيسانسيال).

في أوساط العائلة لم تكن علاقتنا لتحظى بكثير من الاستحسان والترحيب: فوريث العائلة الوحيد مُغرَم ببيضاء. وكانوا ينظرون إليّ بشيء من الإزوِرار. فمع حرصهم على التقيّد بأصول اللباقة كانوا يجدون الوسيلة لإفهامي بأنني مصدر استياء لهم.

ولم يكن رينري ليلحظ ذلك حتّى. فبصحبته لا تبقى إلاّ الذكريات السعيدة: كان فتى من طينة نادرة.

كنتُ أكبره سنةً واحدة، أي ما يكفي ليجعل منّي «آن-أوكوسان»: أي «الزوجة-الأخت- البكر». ويُفتَرض بي، من موقعي كصاحبة خبرة في الحياة، أن ألقِّنَ «خطيبي-أخي-الأصغر» تجارب الحياة.

طبعاً كان الأمر مسليّاً. إذ لقّنته كيف يشرب شاياً أسودَ كما أشربه أنا. فتقيّأ على الفور.

كانت سنة 1989 هي السنة التي انصرفت فيها انصرافاً كلياً إلى الكتابة. ذلك أن عودتي إلى أرض اليابان أمَدَّتني بالطاقة التي طالما احتجتُ إليها. وهناك تبنّيتُ وتيرة في العمل صارت هي وتيرتي: أن أكرّس أربع ساعات، في الأقلّ، من ساعات يومي للكتابة.

ولم تعد الكتابة ما كانت عليه من قبل: أي استخراج البدايات كيفما اتفق؛ بل أصبحت ما هي عليه اليوم - الاندفاعة القصوى، الخشية الممتعة، الرغبة التي أبداً لا تنضب، والحاجة التي تمنحني النشوة.

59

في ذلك الصيف، قدِمت جولييت لتنضمّ إليّ في طوكيو. جعلنا لقاءَنا، بعد الفراق، احتفالَ بهجةٍ صاخبة وصياح. فلطالما كان العيش من دونها أمراً مخالفاً للطبيعة.

جاءت جولييت أخيراً: فلنسلك إذاً مسالك التطواف. حملنا الـ«شنكانسن» حتّى كوبي، ثمّ أنزلنا قطار الضواحي في شوكوغاوا. وما إن نزلنا في المحطّة، حتّى أدركنا أن رحلتنا لم تكن سوى غلطة.

كانت القرية قد بقيت على حالها تقريباً: لكنّ التحوّل أصابنا أنا وأختي. بدا لي الـ«يوشيان» ضئيلاً، وسَهْلَة الطفولة ضيّقة. الزقاق المفضي إلى منزلنا بدا فاقداً سحره. حتّى الجبال المحيطة بنا تراءت ضئيلة في عينيّ.

لدى بلوغنا الباحة أمام منزل طفولتنا، أدخلتُ رأسي من فجوة في السور وتفحّصتُ الحديقة: كانت الحديقة مقيمة على حالها، وما تغيَّر هو أنني غادرتُ في طفولتي مملكةً وعدتُ إليها ولم أجد سوى حديقة.

كنّا، أنا وجولييت، كأننا نتفقّد ساحة معركة غطّت أرضها الجُثث.

- لِنَعُد من حيث أتينا!

في المحطّة، اتصلتُ من هاتف عمومي بنيشيو سان. لم يجب أحد. شعرتُ بمزيج من الأسف والارتياح. كنتُ متلهّفةً للقياها لكنّ الخوفَ من خيبة اللقاء كان يشلّ أطرافي. أمرٌ مؤلم بلا شكّ أن تشعرك الأمكنة بخيبةِ اللقاء بعد اشتياق، أمرٌ مؤلم ولكنّه في آخر المطاف ليس قاتلاً؛ أمّا الخيبة من لقاء مربيّتي الحبيبة فهو أمرٌ يفوق بلا ريب كلّ طاقتي واحتمالي.

عقبَ شهر واحد، غادرتني أختي مجدداً. وقطعت لي عهداً بأننا سنلتقي قريباً جداً. غير أنّ العهد لم يلطّف الحسرات التي أطلقتها لساعاتٍ من صدري أنيناً كشكوى الحيوان المجروح.

عند المساء كان رينري غالباً ما يصطحبني إلى مرفأ طوكيو. نجلس هناك لنراقبَ بتأثّر بالغ حركة تحميل البضائع وتفريغها. أمامنا أكداس هائلة من الإطارات المطّاط. وما كان يفتنني حقاً هو ذاك الارتفاع الشاهق لرافعات «كوماتسو»: تلك الطيور المعدنية التي تتحدّى البحرَ بجلالٍ يليق بالمحاربين القدامى ويثير فيّ جمالُه مشاعر الحماسة والتحدّي.

من موقعنا هناك كان يسعنا إذا ما التفتنا إلى الوراء أن نرى

أيضاً القطارات العابرة فوق الممرّ المعلّق. وفي آناء الليل كم كان جميلاً هدير المعدن ذاك، وكم كان يسكر حواسّي النهمة.

في سيّارة الياكوزا التي يقودها، كان رينري يضع أسطوانات مدمّجة لرويشي ساكاموتو. ويسكب لي الساكي بارداً: لماذا؟ لأنها كانت الموضة السائدة آنذاك. ولم تكن حقبة ما بعد الحداثة خالية من السحر في اليابان.

60

في 31 كانون الأول سنة 1989، اتصلت من هاتف عمومي بنيشيو سان. رفعت السمّاعة. صاحت لهول المفاجأة عندما أدركت أنني أنا المتّصلة. سألتها إذا كانت راغبة في المجيء إلى كيوتو للاحتفال برأس السنة بصحبتي.

كوبي ليست بعيدة. وسأنتظرها في المحطّة.

كنت أقضي ساعات نهاري مرتعدة وأنا أحملق بـ «الجناح الذهبي». لم أضرم النار فيه. كان هاجسي ومحور تفكيري ذلك اللقاء الوشيك. برد قارس ورطوبة هما السمتان الغالبتان على شتاء كيوتو.

عند الساعة المتفق عليها، رأيت سيّدةً قصيرة القامة، نحو متر وخمسين، تترجّل من عربة القطار. عرفتني على الفور:

- كَبِرتِ، ولكنّ وجهك ما زال كما أعرفه حين كنت في الخامسة.

كنت أعلم أن نيشيو سان لم تتجاوز حينها الخمسين من عمرها ولكنّها بدت لي مسنّة: علائمُ الكدّ والشقاء.

قبّلتها وكان الأمر مُحرجاً بعض الشيء.

- متى كانت المرّة الأخيرة؟

- سنة 1972. أي منذ ما يزيد على السبع عشرة سنة.

ابتسامة مربيّتي لم تتغيّر.

قالت إنها تودّ أن نقصد مطعماً صينياً. فاصطحبتها إلى مطعم صيني. حَكَت لي أنّ ابنتيها، التوأمين، قد تزوّجتا، وأطلعتني على صور لهما ولأحفادها. شربت كثيراً من النبيذ الصيني وبدت فَرِحةً، مبتهجة.

أخبرتها أنني في غضون أيام معدودة سأعمل كمترجمة في إحدى الشركات اليابانية الكبرى. فهنّأتني نيشيو سان.

عند منتصف الليل ذهبنا، كما تقضي التقاليد، لقرع الأجراس في المعابد. كانت أصداء قرع الأجراس تتردّد في أنحاء المدينة كلّها. كانت نيشيو سان، الثَمِلة قليلاً، تغرق في الضحك. وكانت عينايَ تغرقان في دموعي.

61

في 17 كانون الثاني 1995 ضرب كوبي زلزالٌ رهيب.

في 18 كانون الثاني، حاولتُ تكراراً الاتصال هاتفياً بنيشيو سان من بروكسِل، ولكن دون جدوى. قد تكون وسائل الاتصال قد أصيبت بأعطال جرّاء الزلزال. ولبثتُ قلِقةً.

في 19 كانون الثاني، تمكّنت من الاتصال بنيشيو سان بما يشبه المعجزة. قالت إنّ منزلها انهار فوق رأسها وإنّ الأمر ذكّرها بسنة 1945.

كانت هي وعائلتها على ما يرام. لكنّها على جري عادتها القديمة كانت تحتفظ بمدّخراتها مخبّأة في منزلها وضاعَ كلّ شيء. قلت لها مؤنّبةً:

- يجب أن تقطعي لي عهداً بأنّك الآن ستفتحين حساباً مصرفياً.

- لكي أودع فيه حفنة النقود التي أحملها في جيبي؟

- كفّي عن المزاح يا نيشيو سان، إنّه لأمر محزن!

- وما المحزن في الأمر؟ ما زلتُ على قيد الحياة.

لقد بلغت آميلي نوثومب مرتبة أكثر الكتّاب مبيعاً بسرعة، وصارت رواياتها تُنتظر بشغف من القراء الذين تعرّفوا إلى أعمالها.

تسرد نوثومب بلغة شيّقة سلسة، وتقول أشياء كثيرة بلغة قليلة.

في هذه الرواية، تأخذنا الكاتبة في رحلة تبدأ من اليابان ثم تعبر الصين وأميركا وبنغلادش والهند وكومبوديا، فيما هي تسرد حياة تبدو أنها حياتها منذ أن كانت طفلة حتى صارت "الكاتبة".

وفي كل هذه المحطات نجد صوراً لا ندركها عبر الكتب، فهي الصور بعين آميلي نوثومب، وهي جاذبية السرد والرَوي بحرارة التحدّيات التي تصنع حياة المرء.



آميلي نوثومب، الكاتبة "السوبر ستار" اليوم، هي ابنة سفير بلجيكي عُيِّن في اليابان حيث ولدت عام 1967 آميلي، وقد تنقلت بسبب وظيفة والدها بين دول عدة، من اليابان إلى الصين، ثم إلى نيويورك فبنغلادش وكمبوديا ودول الشرق الأقصى، وقد كتبت في هذه الرواية هذا الترحال.

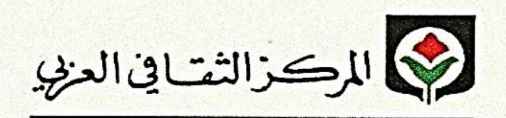
هذه ترجمة لرواية:

Amélie Nothomb

Biographie de la faim

الجــوع هو أنــا

علي مولا



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5458
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma cca_casa_bey@yhoo.com